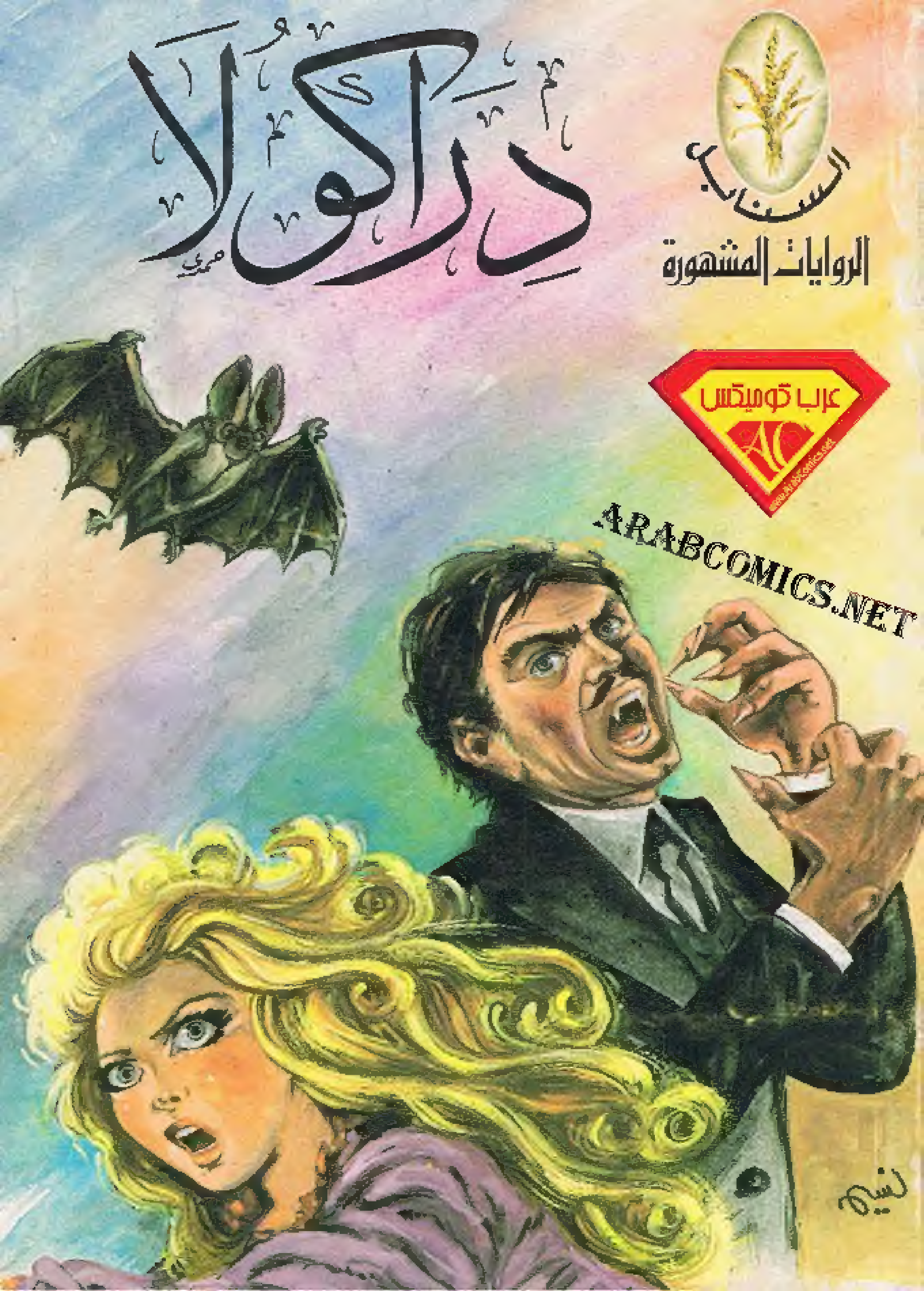


السنابل
الروايات المشهورة
دراكولا
عرب كوميكس
AC
ARABCOMICS.NET





دراكولا

الروايات المشهورة



تأليف : برام ستوكر
إعداد : الدكتور محمد محمود رضوان
رسوم : نسيم ج. نصيف

مكتبة لبنان
بيروت

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩٠ / ٨٨
الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٤٨-٠

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

اَلْقِسْمُ اَلْأَوَّلُ

قَلْعَةُ دراكولا

اَلْفَصْلُ اَلْأَوَّلُ

لَمْ يَكَدِ ٱلْقِطارُ يُغادِرُ بُودابِسْت حَتَّى أَحَسَّ جُوناثان هارْكَر أَنَّهُ يُوَدِّعُ ٱلْغَرْبَ وَيَسْتَقْبِلُ ٱلشَّرْقَ . لَمْ يَكُنْ جوناثان قَدْ غادَرَ إِنْجِلْتِرا قَطُّ مِنْ قَبْلُ ، وَلِذٰلِكَ بَدا لَهُ كُلُّ شَيْءٍ غَرِيبًا عِنْدَما بَدَأَ رِحْلَتَهُ . أَمّا ٱلْآنَ فَقَدِ ٱزْدادَ كُلُّ شَيْءٍ غَرابَةً : اَلطَّعامُ ٱلْحِرِّيفُ ٱلَّذي يَجْعَلُهُ يُحِسُّ وَكَأَنَّ في فَمِهِ نارًا ، وَٱللُّغاتُ ٱلَّتي لا يَعْرِفُها ، وَوادي ٱلدّانُوبِ ٱلْمُنْبَسِطُ ٱلْمُتَرامي ٱلْأَطْرافِ ، وَٱلنَّهْرُ ٱلْعَظِيمُ ذاتُهُ . كانَتْ رُؤْيَةُ أَهْلِ ٱلرِّيفِ بِمَلابِسِهِمِ ٱلزّاهِيَةِ في كُلِّ مَحَطَّةٍ تَجْعَلُهُ وَكَأَنَّهُ في عالَمٍ آخَرَ ، وَلَسَوْفَ يَكُونُ هُناكَ ٱلْكَثِيرُ مِمّا يَرْوِيهِ لِصاحِبَتِهِ مِينا ، ٱلْفَتاةِ ٱلَّتي يَعْتَزِمُ ٱلزَّواجَ بِها .

وَفِيما بَعْدُ ، حِينَما تَحَرَّكَ ٱلْقِطارُ نَحْوَ ٱلشَّمالِ ، تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ مَرَّةً أُخْرَى ، فَقَدْ كانَتْ هُناكَ جِبالٌ ، وَغاباتٌ كَثِيفَةٌ ، وَأَنْهارٌ تَتَدَفَّقُ مِياهُها . وَتَمَلَّكَتْهُ ٱلدَّهْشَةُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلى ٱلْقِلاعِ تَقِفُ شامِخَةً فَوْقَ ٱلصُّخُورِ ٱلعالِيَةِ ، وَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ ٱلْقَلْعَةُ ٱلَّتي هُوَ ذاهِبٌ إِلَيْها عَلى شاكِلَةِ هٰذِهِ ٱلْقِلاعِ .

كانَ ٱلظَّلامُ قَدْ بَدَأَ يَزْحَفُ عِنْدَما وَصَلَ إِلى مَدِينَةِ بِيسْتْرِيتْز ٱلْقَدِيمَةِ ٱلْجَمِيلَةِ ، ٱلَّتي تَمْتَدُّ مِنْها طَرِيقٌ جَبَلِيَّةٌ تُوصِلُ إلى بوكوفينا . وَكانَتْ هٰذِهِ هِيَ ثانِيَةَ لَيْلَتَيْنِ قَضاهُما عَلى سَفَرٍ مُنْذُ غادَرَ بُودابِسْت . وَكانَ مَنْهُوكًا مَكْدُودًا ، وَلِذٰلِكَ شَعَرَ بِالارْتِياحِ وَٱلسُّرُورِ حِينَما رَأى فُنْدُقَ « ٱلتّاجِ ٱلذَّهَبِيِّ » ٱلَّذي كانَ ٱلْكُونْت دراكولا قَدْ رَتَّبَ لَهُ ٱلْإِقامَةَ فِيهِ ، وَٱلَّذي كانَ يَبْدُو مِنْ مَظْهَرِهِ أَنَّهُ فُنْدُقٌ مُرِيحٌ تَشِيعُ فِيهِ ٱلْمَوَدَّةُ . وَصَعِدَ بِهِ مُدِيرُ ٱلْفُنْدُقِ إِلى غُرْفَةٍ بَهِيجَةٍ نَظِيفَةٍ تُطِلُّ عَلى ساحَةٍ رِيفِيَّةٍ غُرِسَتْ فِيها بَعْضُ أَشْجارِ ٱلْفاكِهَةِ .

وَبَعْدَ أَنِ ٱغْتَسَلَ جوناثان نَزَلَ لِيَتَناوَلَ ٱلطَّعامَ ، وَوَجَدَ عَلى ٱلمائِدَةِ ٱلْمُعَدَّةِ لَهُ رِسالَةً قَرَأَ فِيها :

عَزِيزي ٱلسَّيِّدَ هارْكَر ،

وَهٰكَذا قَدْ وَصَلْتَ إِلى ترانسِيلْفانْيا ، وَإِنَّهُ لَيُسْعِدُني أَنْ أَتَرَقَّبَ لِقاءَكَ . أَرْجو لَكَ نَوْمًا هادِئًا ٱللَّيْلَةَ ، وَفي ٱلسّاعَةِ ٱلثّالِثَةِ بَعْدَ ظُهْرِ ٱلْغَدِ ، سَتَرْكَبُ ٱلْعَرَبَةَ ٱلَّتي حَجَزْتُ لَكَ مَكانًا فِيها ، وَٱلْمُتَّجِهَةَ إِلى بُوكُوفِينا ، فَإِذا بَلَغْتَ أَعْلى بُقْعَةٍ في ٱلطَّرِيقِ ٱلصّاعِدِ إِلى ٱلْجِبالِ فَسَوْفَ تَجِدُ عَرَبَتي في ٱنْتِظارِكَ فَتُقِلُّكَ إِلى حَيْثُ تَلْقاني . لَعَلَّكَ سَعِدْتَ بِرِحْلَتِكَ مِنْ لَنْدَن ، وَأَنا واثِقٌ أَنَّكَ سَوْفَ تَسْتَمْتِعُ بِٱلْإِقامَةِ في أَرْضِيَ ٱلْجَمِيلَةِ .

صَدِيقُكَ
دراكولا

فَلَمّا قَرَأَ جوناثان ٱلرِّسالَةَ قالَ لِنَفْسِهِ : « ما أَكْرَمَهُ ! وَما أَشَدَّ مَهارَتَهُ في وَضْعِ بَرْنامَجِ رِحْلَتي ! » وَلٰكِنَّهُ حِينَما سَأَلَ مُدِيرَ ٱلْفُنْدُقِ كَيْفَ وَصَلَتِ ٱلرِّسالَةُ بَدا عَلى ٱلرَّجُلِ شَيْءٌ مِنْ عَدَمِ ٱلارْتِياحِ ، وَتَظاهَرَ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ لُغَتَهُ ٱلْأَلْمانِيَّةَ . وَعِنْدَما حاوَلَ جُوناثان أَنْ يَعْرِفَ مِنْهُ مَعْلُوماتٍ أَكْثَرَ عَنْ قَلْعَةِ دراكولا بَدا عَلَيْهِ أَنَّهُ غَيْرُ راغِبٍ في ٱلْحَدِيثِ ، وَكُلُّ ما قالَهُ إِنَّها تَبْعُدُ كَثِيرًا عَنْ بِيسْتْرِيتْز ، وَإِنَّهُ لَمْ تُتَحْ لَهُ فُرْصَةُ زِيارَتِها قَطُّ .

كانَ هٰذا ٱلْمَسْلَكُ غَرِيبًا ، وَلٰكِنْ عِنْدَما كانَ جُوناثان في طَرِيقِهِ بَعْدَ ظُهْرِ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي إِلى ٱلْعَرَبَةِ ، كانَ مَسْلَكُ زَوْجَةِ مُدِيرِ ٱلْفُنْدُقِ أَشَدَّ غَرابَةً . فَقَدْ حَدَثَ حِينَما كانَ مُتَّجِهًا لِيَأْخُذَ مَكانَهُ في ٱلْعَرَبَةِ أَنْ جاءَتْ إِلَيْهِ وَعَلى وَجْهِها نَظْرَةُ خَوْفٍ وَرُعْبٍ وَسَأَلَتْهُ : « أَلابُدَّ لَكَ مِنَ ٱلذَّهابِ ؟ »

فَتَطَلَّعَ إِلَيْها جوناثان في دَهْشَةٍ وَأَجابَها : « إِنَّني لَمْ آتِ إِلى هُنا مِنْ إِنْجِلْتِرا لِلنُّزْهَةِ . إِنَّني هُنا في عَمَلٍ ، وَلَسْتُ أَمْلِكُ حَقَّ ٱلتَّصَرُّفِ حَسْبَما أَرْغَبُ ، فَهَلْ مِنْ سَبَبٍ

يدعوني إلى عدم الذهاب ؟ » .

فقالت السيدة وهي تضع يدها على ذراعه : « أرجوك .. فهناك خطر . »

وحاول جوناثان أن يبتسم ، ولكن الابتسامة لم تطاوعه ، فقال لها : « أي خطر يمكن أن أتعرض له ؟ إنني ذاهب لزيارة الكونت دراكولا . »

وهنا بدا على السيدة ارتباك شديد ، وأخذت تتفوه بعبارات بلغة غير الألمانية .. لغة غير مفهومة له . وكان هناك آخرون على مقربة جاءوا نحوهما . وأخيرا خلعت السيدة الصليب المعلق في عنقها ووضعته حول عنق جوناثان ، وبدا عليها وهي تفعل ذلك مظهر الجدية الشديدة حتى إنه لم يملك إلا القبول ، بالرغم من أنه ليس من المألوف أن يضع الرجل الإنجليزي صليبا حول عنقه ، وكان الأمر غريبا بالنسبة له .

ركب جوناثان العربة ، وبدأ السائق رحلته ، أما جمهور الواقفين فقد أخذوا يرسمون في الهواء إشارة الصليب . وكان هذا آخر عهد جوناثان ببسترتز .

سأل جوناثان وعلى وجهه ابتسامة : « هل نحن معرضون لخطر داهم ، ومن ثم نحتاج إلى التماس كل هذه البركات من الله ؟ »

فأجاب أحد المسافرين في جدية : « بعضنا قد يكون في حاجة إليها . »

أخذ جوناثان يتطلع إلى جمال الطبيعة الفتان ، مما جعله ينسى — لفترة من الزمن — كل هذه الغرائب . والحق أن الكونت دراكولا كان على حق أن يفخر بمثل هذه الأراضي الرائعة . كانت هناك أشجار مزهرة ، وحقول خضر ذات بهجة ، وأكواخ خشبية ، وجداول جارية ، ثم هناك الغابة التي يكتنفها الظلام ، والتي تمتد لتطوق المكان .

كان الطريق غير ممهد ، ومع ذلك فقد كان السائق يمضي بالعربة مسرعا ، كأنما يريد أن ينهي الرحلة بقدر ما يستطيع من سرعة . وفيما بعد ، حينما بدأ الطريق يتصعد

إلى الجبال كان مضطرا إلى الإبطاء . وأراد جوناثان حينئذ أن ينزل من العربة ويسير على قدميه بمحاذاتها ، ولكن السائق لم يسمح له ، وقال محذرا : « لا ! لا ! إن الذئاب هنا خطرة . »

وحينما انتشر الظلام انتابت المسافرين الرهبة ، ولكن السائق زاد في سرعة الجياد ، ولم يكن يتوقف إلا لحظة ريثما يشعل المصابيح . وأخيرا بلغت العربة أعلى بقعة في الطريق ، ومضت في طريق لا هو مرتفع ولا هو منخفض ، وقدر جوناثان أنه لابد أن يكون هاهنا المكان الذي تنتظره فيه عربة الكونت دراكولا .

وفجأة أخذ الركاب الآخرون يلوحون بأيديهم يلتمسون له البركات كما فعل أولئك الذين كانوا عند الفندق . فهل كان هذا أمرا مألوفا ، أم أنه كان هناك خطر حقا ؟ ثم توقفت العربة وانتظرت ، وكان كل من فيها صامتا يرقب المصابيح المشتعلة ، أما الجياد فكانت ترتجف متململة .

وبعد لحظات قال السائق : « لا توجد عربة هنا ، ليس هناك أحد في انتظار السيد الإنجليزي فمن الأفضل له أن يظل في العربة معنا إلى بوكوفينا ، ثم يعود غدا ، بل لعل الأفضل له أن يعود بعد غد . »

فقال أحد المسافرين : « أو لعل الخير ألا يعود أبدا . »

فصاح آخر : « نعم ، نعم ، خير ما يفعله هو أن يذهب إلى بوكوفينا . »

ولم يكد يتم عبارته حتى طرق أسماعهم صوت عربة أخرى من خلفهم . وظهرت أربعة جياد سود ، يسوقها رجل طويل يرتدي قبعة كبيرة سوداء ، وكانت القبعة تخفي معظم وجهه ، فيما عدا عينيه اللتين كان احمرارهما يلمع في ضوء المصباح .

قال الرجل في لغة ألمانية سليمة : « لقد وصلت مبكرا الليلة ياصديقي . »

فَلَمْ يُجِبْهُ سائِقُ بِيسْتْرِيتْز ، وَكانَ واضِحًا أَنَّهُ خائِفٌ . فَرَدَّدَ ٱلرَّجُلُ مَرَّةً ثانِيَةً : « لَقَدْ وَصَلْتَ مُبَكِّرًا ٱللَّيْلَةَ . »

فَأَجابَهُ سائِقُ بِيسْتْرِيتْز : « إِنَّ ٱلسَّيِّدَ ٱلإِنْجِليزِيَّ كانَ مُسْتَعْجِلًا . »

فَقالَ ٱلرَّجُلُ : « أَظُنُّ أَنَّ هٰذا هُوَ ٱلسَّبَبُ في أَنَّكَ أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَهُ إِلى بوكوفِينا . إِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْفِيَ ما يَجُولُ في ذِهْنِكَ مِنْ أَفْكارٍ ياصَدِيقي . » قالَ ذٰلِكَ ، وَٱبْتَسَمَ ٱبْتِسامَةً قَبِيحَةً ، فَظَهَرَتْ في ضَوْءِ ٱلْمَصابِيحِ أَسْنانُهُ ٱلْبَيْضاءُ غَيْرُ ٱلعادِيَّةِ .

وَمَرَّةً ثانِيَةً لَمْ يُجِبْ سائِقُ بِيسْتْرِيتْز بِكَلِمَةٍ ، وَإِنَّما قَفَزَ إِلى ٱلأَرْضِ بِسُرْعَةٍ ، وَوَضَعَ



حَقائِبَ جوناثان في ٱلعَرَبةِ ٱلأُخرى ، وَهَبَطَ جوناثان مِنَ ٱلعَرَبةِ ، وَساعَدَهُ ٱلسّائِقُ ٱلجَديدُ في صُعودِ عَرَبَتِهِ . وَلَمْ يَشْعُرْ جوناثان بِٱرْتِياحٍ حينَما ٱنْغَرَزَتْ أَصابِعُ ٱلسّائِقِ ٱلقَوِيَّةُ ٱلنَّحيلَةُ بِعُمْقٍ في ذِراعِهِ .

وَٱنْطَلَقَتْ عَرَبةُ بِيسْتريتز ثُمَّ ٱخْتَفَتْ في ٱلظَّلامِ . وَأَحَسَّ جوناثان فَجْأَةً بِٱلوَحْدَةِ ٱلموحِشَةِ .

قالَ ٱلرَّجُلُ : « إِنَّ ٱللَّيْلَةَ بارِدَةٌ ، فَخُذْ هٰذا غِطاءً تَتَدَثَّرُ بِهِ . لَقَدْ طَلَبَ مِنّي سَيِّدي أَنْ أَرْعاكَ خَيْرَ رِعايَةٍ ، وَهُناكَ زُجاجَةُ عَصيرٍ تَحْتَ ٱلمَقْعَدِ إِذا رَغِبْتَ في ٱلشُّرْبِ . »

وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ هٰذا ، وَإِنَّما حَوَّلَ مَسارَ ٱلعَرَبةِ وَٱنْطَلَقَ بِها في طَريقٍ جانِبِيٍّ لَمْ يَلْحَظْهُ جوناثان مِنْ قَبْلُ ، وَكانَ يَمْتَدُّ لِيَتَصَعَّدَ إِلى أَعْلى ٱلجَبَلِ .

وَبَيْنَما كانَتِ ٱلعَرَبةُ تَسيرُ بِهِما في ٱللَّيْلِ ٱلبَهيمِ لَمْ يَكُنْ جوناثان في ٱلبِدايَةِ يَسْتَطيعُ أَنْ يَرى شَيْئًا . فَقَدْ كانَ ٱلظَّلامُ حالِكًا ، وَلَمْ تَكُنِ ٱلعَرَبةُ مُزَوَّدَةً بِمَصابيحَ ، وَإِنَّما كانَتْ تَطْرُقُ سَمْعَهُ طَوالَ ٱلوَقْتِ أَصْواتُ ٱلذِّئابِ ، فَيَعْوي ذِئْبٌ أَوَّلًا ، ثُمَّ يَعْوي آخَرُ بَعْدَهُ ، كُلٌّ يَرُدُّ عَلى صاحِبِهِ . وَكانَتْ أَصْواتُها تَتَرَدَّدُ عَبْرَ ٱلوِدْيانِ ، وَكُلَّما مَضَتِ ٱلعَرَبةُ قُدُمًا ٱزْدادَتْ أَصْواتُها ٱرْتِفاعًا ، حَتّى بَدا وَكَأَنَّ ٱلذِّئابَ تُحيطُ بِهِما مِنْ كُلِّ جانِبٍ . وَحينَما حَدَّقَ جوناثان بِعَيْنَيْهِ خِلالَ ٱلظَّلامِ رَأى قَطيعًا مِنَ ٱلذِّئابِ تَلْتَفُّ حَوْلَهُما كَأَنَّما تَقومُ بِحِراسَتِهِما . فَكانَتْ حَلْقَةٌ مِنَ ٱلعُيونِ ٱلحُمْرِ تَتَحَرَّكُ مَعَهُما بِنَفْسِ ٱلسُّرْعَةِ ٱلَّتي تَتَحَرَّكُ بِها ٱلجِيادُ .

وَلَمْ يَكُنْ يَبْدو عَلى ٱلسّائِقِ أَنَّهُ يَكْتَرِثُ بِما يَراهُ ، وَلٰكِنَّ ٱلجِيادَ كانَتْ خائِفَةً ، وَحينَما ٱزْدادَتِ ٱلذِّئابُ قُرْبًا صاحَ ٱلسّائِقُ فيها ، كَما يَصيحُ ٱلمَرْءُ في كِلابِهِ .

كانَتِ ٱلتَّجْرِبَةُ بِٱلنِّسْبَةِ لِجوناثان أَشْبَهَ بِحُلْمٍ طَويلٍ مُزْعِجٍ وَلَمْ يَنْتَهِ هٰذا ٱلحُلْمُ إِلّا حينَما تَغَيَّرَ صَوْتُ عَجَلاتِ ٱلعَرَبةِ ، بِما دَلَّ عَلى أَنَّهُما قَدِ ٱجْتازا ساحَةَ ٱلدّارِ في قَلْعَةِ دراكولا .

ٱلفَصْلُ ٱلثّاني

غادَرَتِ ٱلعَرَبةُ ٱلمَكانَ وَتَرَكَتْ جوناثان واقِفًا أَمامَ بابٍ قَديمٍ ضَخْمٍ ذي دَعائِمَ حَديدِيَّةٍ . وَلَمْ يَكُنْ بِٱلطّابِقِ ٱلأَرْضِيِّ أَيَّةُ نافِذَةٍ ، وَإِنَّما كانَ هُناكَ ضَوْءٌ يَنْبَعِثُ مِنْ أَعْلى ٱلمَبْنى مِمّا يَدُلُّ عَلى أَنَّ ٱلقَلْعَةَ لَمْ تَكُنْ خالِيَةً مِنَ ٱلسُّكّانِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ جَرَسٌ ، وَلِذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ في وُسْعِهِ إِلّا أَنْ يَنْتَظِرَ حَتّى يَأْتِيَ أَحَدٌ لِيَقودَهُ إِلى ٱلدّاخِلِ .

ظَلَّ جوناثان واقِفًا بِضْعَ دَقائِقَ لا تَطْرُقُ سَمْعَهُ إِلّا أَصْواتُ ٱلذِّئابِ ، إِلى أَنْ سَمِعَ جَلَبَةً عِنْدَ ٱلجانِبِ ٱلدّاخِلِيِّ مِنَ ٱلبابِ ، ثُمَّ فُتِحَ ٱلبابُ ، وَظَهَرَ رَجُلٌ طَويلٌ أَسْوَدُ ٱلشَّعْرِ يَلْبَسُ رِداءً أَسْوَدَ ، وَيُمْسِكُ في يَدِهِ مِصْباحًا فِضِّيًّا . اِبْتَسَمَ ٱلرَّجُلُ قائِلًا :
« إِنَّني أُقَدِّمُ إِلَيْكَ مَنْزِلي ، فَأَهْلًا بِكَ وَسَهْلًا . تَدْخُلُهُ حُرًّا وَتَرْحَلُ مِنْهُ سالِمًا ، وَٱتْرُكْ لَدَيْنا بَعْدَ رَحيلِكَ بَعْضًا مِنَ ٱلسَّعادَةِ ٱلَّتي جِئْتَ بِها إِلَيْنا . »

فَسَأَلَ جوناثان وَهُوَ يُصافِحُ ٱليَدَ ٱلَّتي ٱمْتَدَّتْ إِلَيْهِ : « ٱلكونت دراكولا ؟ »

فَأَجابَ ٱلرَّجُلُ : « أَنا دراكولا . وَيَسُرُّني ياسَيِّدْ هاركر أَنْ أَسْتَقْبِلَكَ في مَنْزِلي . سَأَحْمِلُ عَنْكَ حَقائِبَكَ ، فَٱلوَقْتُ مُتَأَخِّرٌ وَٱلخَدَمُ نائِمونَ . »

وَأَخَذَ جوناثان ٱلمِصْباحَ مِنْهُ ، وَتَبِعَهُ وَهُوَ يَصْعَدُ ٱلسُّلَّمَ ، ثُمَّ وَهُوَ يَعْبُرُ مِنْ خِلالِ حُجْرَةٍ فَسيحَةٍ مُضاءَةٍ إِضاءَةً جَيِّدَةً إِلى غُرْفَةِ نَوْمِهِ . وَكانَ سُرورُ جوناثان بالِغًا إِذْ وَقَعَ بَصَرُهُ في ٱلحُجْرَةِ ٱلَّتي ٱجْتازاها عَلى مِدْفَأَةٍ حَطَبٍ مُشْتَعِلَةٍ ، وَمائِدَةٍ عامِرَةٍ بِٱلطَّعامِ .

لَمْ يَجْلِسِ ٱلكونت مَعَ جوناثان إِلى ٱلمائِدَةِ مُعْتَذِرًا بِأَنَّهُ سَبَقَ أَنْ تَناوَلَ طَعامَهُ ، وَلِذٰلِكَ ، فَبَيْنَما كانَ جوناثان يَأْكُلُ ، أَخَذَ ٱلكونت يُطالِعُ ٱلرِّسالَةَ ٱلَّتي أَحْضَرَها جوناثان مَعَهُ مِنَ ٱلسَّيِّدِ هوكينز ٱلمُحامي ٱلمُسِنِّ ٱلَّذي يَعْمَلُ في مَكْتَبِهِ . وَبَدا عَلى ٱلكونت ٱلسُّرورُ بَعْدَ أَنْ قَرَأَ ٱلرِّسالَةَ ، ثُمَّ أَعادَها إِلى جوناثان لِكَيْ يَطَّلِعَ عَلى ٱلأَشْياءِ ٱلطَّيِّبَةِ ٱلَّتي

كَتَبَها هوكينز عَنْهُ .

وَبَعْدَ أَنْ تَناوَلَ جوناثان طَعامَهُ جَلَسَ ٱلضَّيْفُ وَٱلْمُضيفُ بِجِوارِ ٱلْمِدْفَأَةِ يَتَحَدَّثانِ . وَكانَ جوناثان مَسْرورًا لِأَنَّ ٱلكونت كانَ يَتَحَدَّثُ بِلُغَةٍ إِنْجليزِيَّةٍ سَليمَةٍ ، كَما أَنَّ ٱلسُّرورَ كانَ بادِيًا عَلى ٱلكونت لِأَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ بِٱلإِنْجليزِيَّةِ ، وَكانَ هُوَ أَكْثَرَ ٱلاثْنَيْنِ حَديثًا مِمّا هَيَّأَ لِجوناثان فُرْصَةَ ٱلتَّأَمُّلِ في وَجْهِهِ وَدِراسَتِهِ .

كانَ وَجْهُهُ غَيْرَ عادِيٍّ ، فَٱلأَنْفُ قَوِيٌّ حَسَنُ ٱلصّورَةِ ، وَٱلأُذُنانِ مُحَدَّدَتانِ نابِتَتانِ ، وَٱلشَّفَتانِ حَمْراوانِ ، وَٱلأَسْنانُ حادَّةٌ بَيْضاءُ . وَلٰكِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذي كانَ يَلْفِتُ فيهِ ٱلنَّظَرَ بِصِفَةٍ خاصَّةٍ هُوَ ذٰلِكَ ٱلشُّحوبُ غَيْرُ ٱلطَّبيعِيِّ . لابُدَّ أَنَّ ٱلرَّجُلَ كَبيرُ ٱلسِّنِّ ، وَلٰكِنَّهُ ، مَعَ ذٰلِكَ ، كانَ يَبْدو قَوِيًّا نَشيطًا . وَقَدْ لاحَظَ جوناثان أَيْضًا يَدَيْهِ ٱللَّتَيْنِ نَبَتَ ٱلشَّعْرُ في راحَتَيْهِما ، وَأَصابِعَهُ ٱلطَّويلَةَ ٱلحادَّةَ ٱلأَطْرافِ . وَلَمْ يَكُنْ جوناثان يَشْعُرُ بِٱلارْتِياحِ حينَما كانَ ٱلكونت يَتَحَدَّثُ فَيَلْمِسُ أَحْيانًا ذِراعَهُ بِأَصابِعِهِ ، كَما أَنَّ ٱلرّائِحَةَ ٱلْمُنْبَعِثَةَ مِنْ أَنْفاسِ ٱلكونت كانَتْ تُثيرُ ٱلغَثَيانَ . لَقَدْ كانَتْ فيها رائِحَةُ ٱلْمَوْتِ ، حَتّى لَقَدْ تَساءَلَ في نَفْسِهِ : « تُرى أَتَكونُ هِيَ ٱلسَّبَبَ في أَنَّ ٱلنّاسَ يَخافونَهُ ؟ »

وَأَخيرًا ، خَيَّمَ ٱلسُّكونُ عَلى ٱلقَلْعَةِ فيما عَدا عُواءَ ٱلذِّئابِ في ٱلخارِجِ وَٱلَّذي كانَ لا يَزالُ مَسْموعًا . وَقالَ ٱلكونت وَهُوَ يَنْهَضُ : « أَوْلادي في هِياجِ ٱللَّيْلَةِ . إِنَّ لَدَيْنا بَعْضَ ٱلزُّوّارِ . »

وَحينَما نَهَضَ ، كانَ ضَوْءُ ٱلفَجْرِ قَدْ بَدَأَ يَنْتَشِرُ ، وَهٰكَذا ٱنْقَضَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ لِجوناثان في قَلْعَةِ دراكولا .

كانَ جوناثان مُرْهَقًا مَكْدودًا ، وَلِذٰلِكَ نامَ طَويلًا ، وَلَمّا ٱسْتَيْقَظَ دَلَفَ إِلى ٱلحُجْرَةِ ٱلَّتي تَناوَلَ فيها ٱلطَّعامَ في ٱللَّيْلَةِ ٱلْماضِيَةِ ، فَوَجَدَ طَعامَ ٱلإِفْطارِ مُعَدًّا ، وَإِبْريقَ ٱلقَهْوَةِ قُرْبَ نارِ ٱلْمِدْفَأَةِ ، وَأَمْكَنَهُ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَنْ يَرى قَلْعَةَ دراكولا عَلى حَقيقَتِها : فَهِيَ قَلْعَةٌ قَديمَةٌ

مَليئَةٌ بِٱلغُبارِ ، مَسَّها ٱلبِلى ، مَعَ أَنَّ إِبْريقَ ٱلقَهْوَةِ كانَ مِنَ ٱلذَّهَبِ .

وَحينَما فَرَغَ مِنْ تَناوُلِ طَعامِهِ نَظَرَ باحِثًا عَنْ جَرَسٍ يَدُقُّهُ لِكَيْ يَعْرِفَ ٱلخَدَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَطيعونَ أَنْ يَرْفَعوا ٱلصُّحونَ . وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ جَرَسٌ ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ خَدَمٌ عَلى ٱلأَقَلِّ في هٰذا ٱلجُزْءِ مِنَ ٱلقَلْعَةِ ٱلَّذي كانَ يُمْكِنُهُ ٱلتَّجَوُّلُ فيهِ ، وَكانَتِ ٱلأَبْوابُ كُلُّها مُوصَدَةً فيما عَدا بابًا واحِدًا كانَ يُؤَدّي إِلى حُجْرَةِ جُلوسٍ تَشْتَمِلُ عَلى مَجْموعَةِ كُتُبٍ ، وَقَدْ أَخَذَتْهُ ٱلدَّهْشَةُ حينَما وَجَدَ بَيْنَها كُتُبًا وَصُحُفًا إِنْجليزِيَّةً ، فَجَلَسَ لِيُطالِعَ . وَكانَ لا يَزالُ جالِسًا لِلْقِراءَةِ في ٱلْمَساءِ حينَما دَخَلَ ٱلكونت ٱلَّذي بادَرَهُ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّني مَسْرورٌ لِأَنَّكَ عَرَفْتَ طَريقَكَ إِلى هُنا . إِنَّني ، مُنْذُ عَزَمْتُ عَلى شِراءِ مَنْزِلٍ في إِنْجِلْترا ، أُحاوِلُ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئًا عَنِ ٱلحَياةِ ٱلإِنْجليزِيَّةِ . وَيُؤْسِفُني أَنَّ مَعْرِفَتي بِٱللُّغَةِ ٱلإِنْجليزِيَّةِ كانَتْ عَنْ طَريقِ ٱلكُتُبِ فَحَسْبُ ، وَلٰكِنّي آمُلُ أَنْ أَزْدادَ بِها عِلْمًا بِٱلتَّحَدُّثِ إِلَيْكَ ياسَيِّدُ هاركر . وَلِذٰلِكَ فَإِنّي أَرْجو أَنْ تَطولَ إِقامَتُكَ في قَلْعَتي ، وَأَلّا تَكونَ مُتَعَجِّلًا في ٱلعَوْدَةِ . »

ثُمَّ ٱسْتَمَرَّ يَقولُ : « وَتَذَكَّرْ ياسَيِّدُ هاركر ، مادُمْتَ هُنا ، أَنَّ ٱلدّارَ دارُكَ . فَجُلْ فيها حَيْثُ تَشاءُ فيما عَدا ما وَراءَ ٱلأَبْوابِ ٱلْمُوصَدَةِ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ ، بِٱلطَّبْعِ ، لَنْ تَرْغَبَ في دُخولِها . إِنَّ هُناكَ مِنَ ٱلأَسْبابِ ما يَدْعو إِلى هٰذِهِ ٱلإِجْراءاتِ ، فَنَحْنُ في ترانسيلْفانيا ، وَترانسيلْفانيا لَيْسَتْ إِنْجِلْترا . »

وَبَيْنَما كانَ يَقولُ ذٰلِكَ تَكَشَّفَتْ أَسْنانُهُ عَنِ ٱبْتِسامَةٍ أَشْبَهَ بِٱبْتِسامَةِ ٱلذِّئْبِ ، وَٱسْتَمَرَّ يَقولُ : « وَٱلآنَ ، زَوِّدْني بِمَعْلوماتٍ عَنِ ٱلْمَنْزِلِ ٱلَّذي ٱشْتَراهُ لي صاحِبُكَ ٱلسَّيِّدُ هوكينز ، وَأَحْسَبُ أَنَّ هُناكَ بَعْضَ أَوْراقٍ لِأُوَقِّعَ عَلَيْها بِٱسْمي ، وَطَبيعِيٌّ أَنْ تَكونَ لَدَيَّ رَغْبَةٌ في مَعْرِفَةِ كُلِّ شَيْءٍ . »

فَرَدَّ جوناثان : « أَوَّلًا ، آمُلُ أَنْ تَجِدَ أَنَّ ٱلْمَنْزِلَ ٱلَّذي ٱشْتَرَيْناهُ لَكَ هُوَ ما كُنْتَ تَرْغَبُ فيهِ فِعْلًا ، وَأَصْدُقُكَ ٱلقَوْلَ : إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ ٱلنَّوْعِ ٱلَّذي يَرْغَبُ فيهِ أَغْلَبُ ٱلنّاسِ ، وَلٰكِنَّهُ

يُطابِقُ ما طَلَبْتَهُ . إِنَّهُ يُسَمّى كارفاكس ، وَمُلْحَقٌ بِهِ أَرْضٌ واسِعَةٌ تُغَطّي مُعْظَمَها ٱلأَشْجارُ بِما يُضْفي عَلَيْها بَعْضَ ٱلظُّلْمَةِ . أَمّا ٱلمَنْزِلُ ذاتُهُ فَواسِعٌ قَديمٌ قَليلُ ٱلنَّوافِذِ ، وَأَخْشى أَنَّكَ لَنْ تَجِدَ صُحْبَةً كَثيرَةً في كارفاكس ، إِذْ إِنَّهُ لا تُوجَدُ مَنازِلُ كَثيرَةٌ مُجاوِرَةٌ . أَمّا جارُكَ ٱلوَحيدُ في ٱلمِنْطَقَةِ فَهُوَ طَبيبٌ يَتَوَلّى إِدارَةَ مُسْتَشْفًى لِلْمَجانينِ . »

فَرَدَّ ٱلكونت : « إِنَّني مَسْرورٌ لِأَنَّ ٱلمَنْزِلَ قَديمٌ ، فَلَقَدْ نَشَأْتُ في أُسْرَةٍ عَريقَةٍ ، وَلا أُحِبُّ أَنْ أُقيمَ في مَنْزِلٍ لَيْسَ لَهُ تاريخٌ ، ثُمَّ إِنَّني لا أُبالي ٱلظَّلامَ . فَرَجُلٌ مُسِنٌّ مِثْلي ، يَعيشُ وَحيدًا وَيُفَكِّرُ كَثيرًا في ٱلمَوْتِ ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَخْشى ٱلظَّلامَ . »

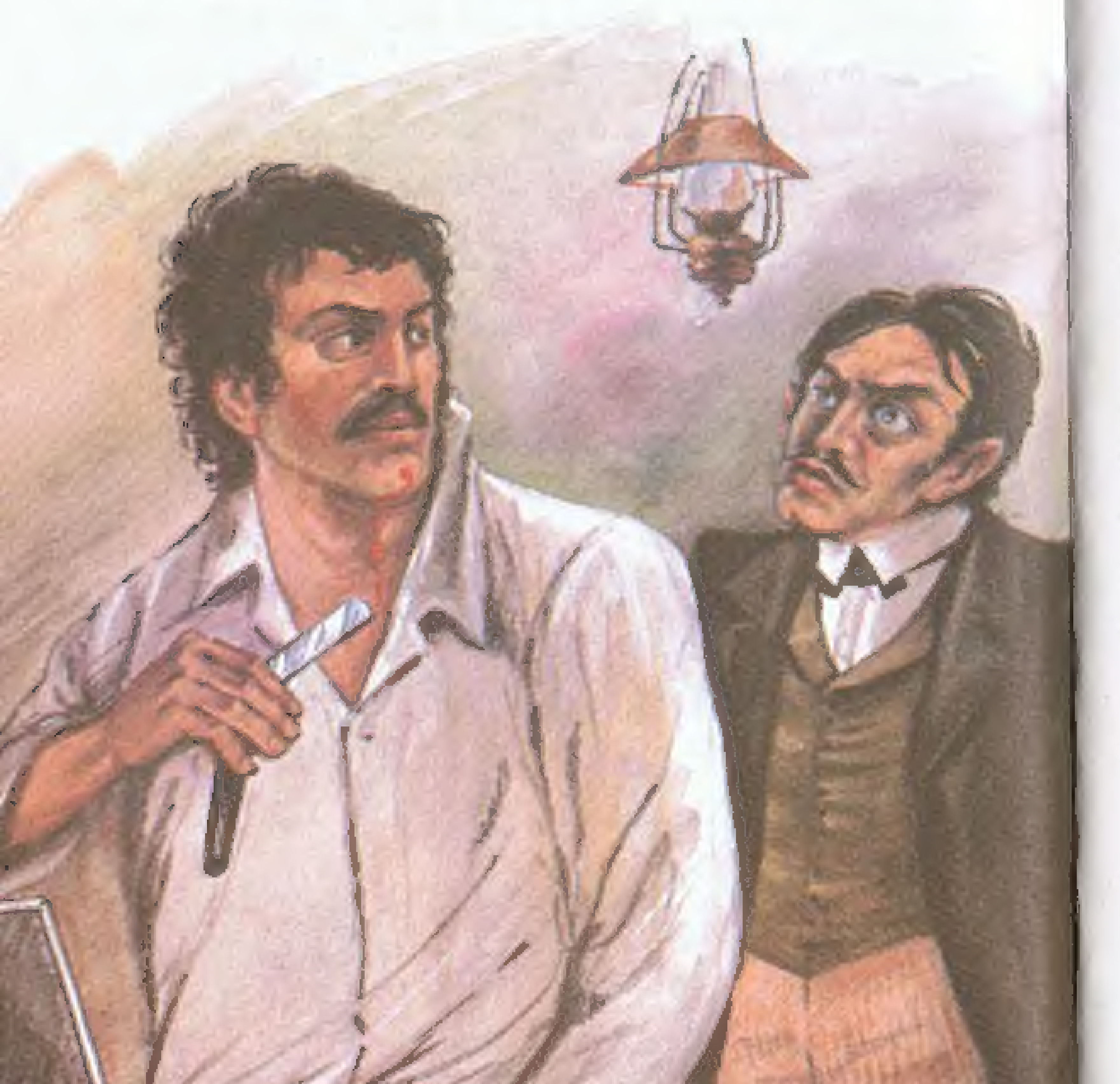
ثُمَّ وَقَّعَ ٱلكونت بِٱسْمِهِ عَلى ٱلأَوْراقِ ، وَسارَ يَتْبَعُهُ جوناثان إِلى حُجْرَةِ ٱلمائِدَةِ حَيْثُ كانَ ٱلطَّعامُ في ٱنْتِظارِهِما . وَمَرَّةً ثانِيَةً ٱعْتَذَرَ ٱلكونت عَنْ عَدَمِ تَناوُلِ ٱلطَّعامِ عَلى زَعْمِ أَنَّهُ تَناوَلَهُ خارِجَ ٱلمَنْزِلِ .

ٱنْقَضَتْ هٰذِهِ ٱلأُمْسِيَةُ وَٱلأَماسِيُّ ٱلتّالِيَةُ بِنَفْسِ ٱلنَّمَطِ ، وَمَعَ أَنَّهُ كانَ يَبْدو غَريبًا ، في نَظَرِ جوناثان ، أَنْ يَقْضِيَ ٱلوَقْتَ بِٱلحَديثِ في ٱللَّيْلِ ، وَٱلنَّوْمِ في ٱلنَّهارِ ، فَقَدْ بَدا لَهُ أَنَّ هٰذا هُوَ ٱلأُسْلوبُ ٱلَّذي تَعَوَّدَهُ ٱلكونت ، وَأَحَسَّ أَنَّ مِنَ ٱلواجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يُرْضِيَهُ . أَمّا ٱلكونت فَقَدْ كانَ مَسْلَكُهُ دَمِثًا لَطيفًا ، وَكانَ حَديثُهُ دائِمًا شائِقًا وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ جوناثان ، لِسَبَبٍ غامِضٍ لا يَعْلَمُهُ ، مُتَوَجِّسًا خيفَةً مِنْهُ . وَلَمْ يَكُنْ مَصْدَرُ ذٰلِكَ هُوَ ، فَقَطْ ، تِلْكَ ٱلنَّظْرَةَ ٱلَّتي كانَ يَلْمَحُها أَحْيانًا في عَيْنَيْهِ ٱلغَريبَتَيْنِ بِسَبَبِ حُمْرَتِهِما ؛ وَإِنَّما هُوَ ، كَذٰلِكَ ، إِحْساسُهُ أَنَّ ٱلكونت لَيْسَ رَجُلًا عادِيًّا ، وَأَنَّ فيهِ قُوًى غَيْرَ طَبيعِيَّةٍ . وَحانَتْ فُرْصَةٌ وَجَدَ فيها جوناثان بُرْهانًا يُؤَيِّدُ هٰذا ٱلإِحْساسَ ، وَكانَ ذٰلِكَ عَقِبَ قُدومِهِ بِحَوالَى أُسْبوعٍ . كانَ جوناثان يَقِفُ بِجِوارِ ٱلنّافِذَةِ يَحْلِقُ ذَقْنَهُ وَقَدْ وَضَعَ أَمامَهُ مِرْآةً صَغيرَةً كانَتْ صَديقَتُهُ مينا ، لِحُسْنِ ٱلحَظِّ ، قَدْ أَهْدَتْها إِلَيْهِ . وَنَقولُ « لِحُسْنِ ٱلحَظِّ » لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُناكَ مِرْآةٌ في غُرْفَتِهِ ، وَلا في أَيٍّ مِنْ غُرَفِ ٱلقَلْعَةِ ٱلأُخْرى .

وَفَجْأَةً أَحَسَّ بِمَلْمَسِ يَدٍ ، وَسَمِعَ صَوْتًا يُحَيِّيهِ تَحِيَّةَ ٱلصَّباحِ ، فَقَفَزَ مِنَ ٱلمُفاجَأَةِ ،

وَنَظَرَ فَإِذا ٱلكونت واقِفٌ بِجانِبِهِ . كانَ ٱلكونت مِمَّنْ يَمْشونَ بِهُدوءٍ ، وَمِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ يَكونَ قَدْ دَخَلَ ٱلحُجْرَةَ فَلَمْ يَسْمَعْ وَقْعَ أَقْدامِهِ ، أَمّا غَيْرُ ٱلمُمْكِنِ فَهُوَ أَنْ يَدْخُلَ ٱلحُجْرَةَ وَلا يُرى ، وَقالَ جوناثان في نَفْسِهِ : « كَيْفَ لَمْ أَرَهُ في ٱلمِرْآةِ وَهُوَ يَدْخُلُ ٱلحُجْرَةَ ، ثُمَّ إِنَّهُ يَقِفُ ٱلآنَ أَمامَ ٱلمِرْآةِ ، وَمَعَ أَنَّني أَرى نَفْسي فيها فَإِنَّني لا أَراهُ . »

وَبَيْنَما كانَ جوناثان لا يَزالُ يُحَدِّقُ في ٱلمِرْآةِ لَحَظَ أَنَّهُ جَرَحَ ذَقْنَهُ وَأَنَّ ٱلدَّمَ أَخَذَ يَسيلُ عَلى عُنُقِهِ ، فَٱلْتَفَتَ نَحْوَ ٱلكونت مَرَّةً ثانِيَةً لِيَتَأَكَّدَ ما إِذا كانَ في ٱلحُجْرَةِ حَقيقَةً ، فَأَصابَهُ



الفزعُ وتجمَّدَ في مكانِهِ . كانَ دراكولا يُراقِبُهُ وكأنَّه حيوانٌ جائعٌ . وبَدا وكأنَّهُ يتأهَّبُ لِمُهاجَمتِهِ .

كانَ الدَّمُ في هٰذِهِ اللَّحظةِ قَدْ وَصَلَ حتّى الصَّليبِ الَّذي قَدَّمَتْهُ لَهُ سيِّدةُ الفُنْدقِ ، وبِدونِ تَفكيرٍ مَسَحَ جوناثان الدَّمَ بِظَهْرِ يَدِهِ . وفي أثناءِ ذٰلِكَ رَفَعَتْ يَدُهُ الصَّليبَ ، وإذا بِوَجْهِ الكونْتِ يَتغيَّرُ ويَبْدو كالمَجْنونِ ، ووَقَفَ يَرتَعِشُ فترةً مِنَ الزَّمنِ كأنَّما تُغالِبُهُ الرَّغبةُ في الهُجومِ على جوناثان ، ولٰكِنَّهُ ، لأمْرٍ ما ، غيرُ قادرٍ . وفَجأةً تناوَلَ المِرآةَ الصَّغيرةَ وألقاها مِنَ النّافِذةِ . ومَضَتْ لَحظةُ سُكونٍ طَويلةٌ ، وَجَدَ جوناثان نَفْسَهُ في أثنائِها يَحْسِبُ الوَقْتَ الَّذي انْقَضَى قَبْلَ أنْ يَسْمَعَ صَوْتَ تَهشُّمِ المِرآةِ على الصُّخورِ . أمّا الكونْتُ فَقَدِ اسْتدارَ إليهِ قائلًا : « إنَّ الشَّيْطانَ أعْطَى النّاسَ المَرايا لِكَيْ يَجْعلَهُمْ مُتعالينَ مُتكبِّرينَ . إنَّني لا أسْمَحُ بِها في مَنْزِلي . » ثُمَّ قالَ وَهُوَ يُغادِرُ الحُجْرةَ : « حاوِلْ ألّا تَجْرَحَ نَفْسَكَ ، فإنَّ ذٰلِكَ في بَلَدِنا أكْثَرُ خُطورةً مِمّا تَتصوَّرُ . »

وفي البِدايةِ ، لَمْ يَكُنْ في وُسْعِ جوناثان إلّا أنْ يَظَلَّ واقِفًا ورَغْوةُ الصّابونِ تَجِفُّ على وَجْهِهِ . كانَ عاجِزًا عَنْ أنْ يَفْعَلَ أيَّ شَيْءٍ . وتَدافَعَتِ التَّساؤلاتُ في ذِهْنِهِ : لِماذا اسْتثيرَ الرَّجُلُ هٰذِهِ الاسْتِثارةَ بِمَنْظَرِ الدِّماءِ ؟ وأيُّ نَوْعٍ مِنَ الرِّجالِ هٰذا الَّذي لا تُمْكِنُ رُؤيتُهُ في المِرآةِ ؟

ثُمَّ نَظَرَ مِنَ النّافِذةِ مُتطلِّعًا إلى أسْفَلَ . إنَّ المِرآةَ لابُدَّ أنْ تَكونَ قَدْ هَوَتْ مِئةَ مِتْرٍ قَبْلَ أنْ تَصْطَدِمَ بِالأرْضِ . ما أصْعَبَ الهُروبَ مِنْ هٰذِهِ القَلْعةِ ! ومَرَّتْ بِخاطِرِهِ أفْكارٌ عَنِ الأبْوابِ المُوصَدةِ ، وأخَذَ يَتساءَلُ : تُرَى أهُوَ زائِرٌ لِلكونْتِ دراكولا ، أمْ هُوَ سَجينٌ لَدَيْهِ ؟ أهُوَ ضَيْفُهُ أمْ أسيرُهُ ؟

الفصلُ الثّالِثُ

كانَ جوناثان مُحاميًا دَرَسَ القانونَ ، وقَدْ عَلَّمَتْهُ هٰذِهِ الدِّراسةُ كَيْفَ يُواجِهُ الحَقائِقَ . ومِنَ الحَقائِقِ الَّتي كانَ عَلَيْهِ أنْ يُواجِهَها آنذاكَ أنَّهُ سَجينٌ مِنْ نَوْعٍ ما . ولٰكِنَّ المُؤكَّدَ أنَّهُ سِجْنٌ مُؤقَّتٌ لِبِضْعةِ أيّامٍ أُخْرَى ، وأنَّهُ إذا كانَ دراكولا قَدْ أفْزَعَهُ فَهٰذا لا يَعْني بِالضَّرورةِ أنَّهُ في خَطَرٍ ، فَعَلَيْهِ أنْ يُخْفِيَ ما يَجُولُ في ذِهْنِهِ مِنْ أفْكارٍ ، ويُحاوِلَ أنْ يَعْرِفَ المَزيدَ مِنَ المَعْلوماتِ .

وفي هٰذا المَساءِ سَمِعَ خُطُواتِ الكونْتِ وهُوَ يَدْخُلُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ خارِجِ المَنْزِلِ ، ولاحَظَ أنَّهُ لَمْ يَأْتِ مُباشَرةً إلى حُجْرةِ الجُلوسِ . فَمَشَى جوناثان بِخُطًى خَفيفةٍ نَحْوَ بابِ حُجْرةِ الكونْتِ وشاهَدَهُ يُرَتِّبُ فِراشَهُ . وفيما بَعْدُ ، حِينَ رَآهُ وهُوَ يُعِدُّ بِنَفْسِهِ المائِدةَ في حُجْرةِ الطَّعامِ ، اتَّضَحَ لَهُ — على الأقَلِّ — أمْرٌ مِنَ الأُمورِ : اتَّضَحَ لَهُ أنَّهُ لَيْسَ هُناكَ خَدَمٌ في القَلْعةِ . لَقَدْ كانَ الكونْتُ نَفْسُهُ هُوَ الَّذي يَقومُ بِكُلِّ أعْمالِ المَنْزِلِ ، وهُوَ الَّذي يَسوقُ العَرَبةَ . إذًا ، فإنَّ جوناثان وَحْدَهُ في القَلْعةِ مَعَ دراكولا . وَحْدَهُ ؟ لٰكِنْ لا ، لَيْسَ وَحْدَهُ تَمامًا كَما اكْتَشَفَ بَعْدَ أيّامٍ قَليلةٍ .

* * *

ومَضَتِ الأيّامُ على وَتيرةٍ واحِدةٍ . يَسْتَيْقِظُ جوناثان مِنْ نَوْمِهِ في وَقْتٍ مُتأخِّرٍ فَيَتناوَلُ إفْطارَهُ ، ثُمَّ يُطالِعُ في حُجْرةِ الجُلوسِ ، وفي اللَّيْلِ يَسْتَمِعُ إلى الكونْتِ وهُوَ يَتحدَّثُ عَنْ تاريخِ أُسْرَتِهِ وعَنْ بَلَدِهِ . وكانَ حَديثُهُ عَنْ أُسْرَتِهِ أوْ عَنْ بَلَدِهِ شَيْئًا واحِدًا تَقْريبًا ، ذٰلِكَ أنَّ أعْضاءَ أُسْرةِ دراكولا كانوا هُمُ المِحْوَرَ لِجَميعِ الأحْداثِ الَّتي تُمَثِّلُ تاريخَ تِرانْسيلْفانيا وهُنا كانَ حَديثُهُ شائِقًا . وكانَ يَرْوي قِصَصَهُ بِأُسْلوبٍ يَفيضُ بِالعاطِفةِ والمَشاعِرِ ، حَتّى لَقَدْ يُخَيَّلُ إلى السّامِعِ أنَّهُ كانَ مُشْتَرِكًا بِنَفْسِهِ في المَعارِكِ الَّتي يَتحدَّثُ عَنْها .

وفي بَعْضِ الأحْيانِ كانَ يَتحدَّثُ عَنْ أشْياءَ عادِيَّةٍ .. عَنْ إنْجِلْترا .. عَنِ القانونِ ..

عن السفن والقطارات . وكان جوناثان يأخذه العجب من كثرة المعلومات التي يلم بها . وكان من بين الاهتمامات التي أبداها رغبته في تصدير بضائع إلى إنجلترا ، ولذلك كان يريد اختيار مدينة ساحلية حيث يمكنه شحن البضائع إليها مباشرة .

قال الكونت : « لا أريد مدينة كبيرة . فقد يكون في ذلك مشقة ومضيعة للوقت ، فماذا ترى ياسيد هاركر ؟ »

فقال جوناثان : « لماذا لا تكون هويتبي ؟ »

* * *

كان جوناثان يفكر في مينا وصديقتها الجميلة لوسي ، إذ كانتا تعتزمان الذهاب لقضاء العطلة في تلك المدينة القديمة الرائعة التي تقع في الشمال الشرقي ، والتي تشتهر بصيد الأسماك . حدثه جوناثان عن المدينة وعن صديقته مينا . وبدا على الكونت الاهتمام والرضا ، فقد كانت هويتبي ملائمة له ، وأعرب كذلك عن سعادته البالغة بعزم جوناثان على الزواج . وتمنى له أطيب الأمنيات .

وقد سر جوناثان ما رآه من اهتمامه بزواجه ، فأخرج صورا فوتوغرافية لمينا ولوسي ، وتبسم الكونت حين شاهد الصور ، وقال : « يالهما من فتاتين جميلتين ! »

وقد نطق العبارة بطريقة جعلت جوناثان يأسف لتسرعه في إطلاعه على الصور ، ثم قال الكونت :

« صديقتك الآنسة مينا ! من المؤكد أنها ترغب في معرفة أخبارك . وكذلك السيد هوكينز . هل كتبت إليهما منذ قدومك ؟ »

فأجاب جوناثان : « لا .. لم تتح لي الفرصة ، لكي أبعث بأية رسائل »

قال الكونت : « إذا فاكتب الآن ياصديقي العزيز . اكتب إلى السيد هوكينز وأخبره أنك

سوف تقيم معي شهرا آخر . »

وما إن سمع جوناثان كلامه حتى جمد الدم في عروقه ، وقال : « أتريدني أن أقيم هنا هذه الفترة الطويلة ؟

فأجاب الكونت : « آمر ذلك . لقد بعثت لترعى أعمالي ، وأعمالي تتطلب منك أن تكون هنا لفترة طويلة »

وهنا ، أحس جوناثان — أكثر مما كان يحس من قبل — أنه أشبه بالسجين . قال لنفسه : « كيف أستطيع أن أواصل الحياة في هذه القلعة لمدة شهر آخر ؟ ومع هذا ماذا أستطيع أن أفعل ؟ إنني أعمل لدى السيد هوكينز ، والكونت دراكولا يدفع أجرا في مقابل خدماتي . »

واستمر الكونت يقول : « إنني أطلب إليك ألا تكتب في رسائلك إلا ما يمس العمل مع استثناء ما تقوله من أنك بخير . »

ثم ناول جوناثان أوراقا وظروفا لكتابة الرسائل . وكانت الظروف من الرقة والشفافية بحيث يمكن أن يقرأ ما هو مكتوب في الرسالة من خلال الظرف .

* * *

وهكذا جلس جوناثان ، وكتب بضع رسائل لا تتضمن أي أمر من الأمور التي كان يود لو استطاع أن يكتب عنها . وأخذ الكونت الرسائل ، وقبل أن يذهب قال : « دعني أحذرك ياصديقي الشاب ، إذا غادرت هذه الحجرات وذهبت إلى أي جزء آخر من القلعة ، فلا تستسلم للنوم هناك . إن القلعة قديمة ، وقد وقعت أحداث غريبة هنا ، ومن المحتمل أن ترى أحلاما مزعجة ، أما في حجرتك فإنك في مأمن »

فقال جوناثان في نفسه : « في مأمن ؟! كيف أستطيع أن أكون آمنا وأنت هنا ؟ »

* * *

هبط جوناثان إلى حَيْثُ الْبابُ الْكَبيرُ الَّذي يُؤَدّي إلى ساحةِ الدّارِ . كانَ الْبابُ مُوصَدًا كالعادةِ ، ولابُدَّ أَنْ يَكونَ الْمِفتاحُ في حُجْرةِ الْكونْت . وكانَتْ هُناكَ حُجْرةٌ صَغيرةٌ أَوِ اثْنَتانِ غيرُ مُوصَدَتَيْنِ ، ولكِنَّ أَيًّا مِنْهُما لَمْ تَكُنْ تُؤَدّي إلى أَيِّ مَكانٍ . ثُمَّ لاحَظَ أَنَّ هُناكَ بابًا في نِهايةِ دِهْليزٍ قَصيرٍ . وَقَدْ بَدا في بادِئِ الأَمْرِ أَنَّهُ مُوصَدٌ ، ولكِنَّهُ كانَ في الحقيقةِ ساقِطًا ومُسْتَنِدًا إلى الأرضِ ، فاستطاعَ جوناثان أَنْ يَرْفَعَهُ ثُمَّ يَدْفَعَهُ لِيَنْفَتِحَ قليلًا بما يَكْفي لِكَيْ يَعْبُرَ مِنْ خِلالِ الْفَتْحةِ . ثُمَّ أَخَذَ يَتَحَسَّسُ طريقَهُ وَيَصْعَدُ سُلَّمًا مُظْلِمًا حَتّى وَجَدَ نَفْسَهُ في حُجْرةٍ بَهيجةٍ تُضيئُها أَشِعَّةُ الْقَمَرِ ، وتَوَقَّعَ أَنْ تَكونَ مُجاوِرةً لِحُجْرةِ نَوْمِه . وبَدا مِمّا فيها مِنْ أَثاثٍ أَنَّها رُبَّما كانَتْ تَسْتَخْدِمُها سَيِّداتُ الْقَلْعةِ مُنْذُ زَمانٍ طَويلٍ .

وَمَدَّ جوناثان رَأْسَهُ مِنَ النّافِذةِ مُتَمَتِّعًا بِاسْتِنْشاقِ هَواءِ اللَّيْلِ . وكانَ وُجودُهُ في جُزْءٍ آخَرَ مِنْ أَجْزاءِ الْقَلْعةِ يُشْعِرُهُ أَنَّهُ قَدِ انْتَصَرَ على دراكولا بَعْضَ الانْتِصارِ . وفي هٰذِهِ اللَّحْظةِ سَمِعَ صَوْتًا مِنْ أَسْفَلَ ، وأَدْرَكَ مِنْهُ أَنَّ هُناكَ شَخْصًا ما يُطِلُّ مِنْ نافِذةٍ . وتَطَلَّعَ صَوْبَهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرى الْوَجْهَ ، ولكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّهُ لابُدَّ أَنْ يَكونَ الْكونْت دراكولا . وَسَرَّهُ أَنَّ دراكولا لَمْ يَكْتَشِفْ وُجودَهُ ، ولكِنْ سُرْعانَ ما تَحَوَّلَ السُّرورُ إلى خَوْفٍ ، فَبِحَرَكةٍ فُجائيَّةٍ كانَ جِسْمُ دراكولا كُلُّهُ يَبْرُزُ خارِجَ النّافِذةِ ، وَبَدَأَ يَهْبِطُ على الْجِدارِ وَرَأْسُهُ إلى أَسْفَلَ كَمِثْلِ ذُبابةٍ تَدِبُّ هابِطةً على جِدارٍ . وكانَتْ أَصابِعُ يَدَيْهِ وقَدَمَيْهِ تَتَشَبَّثُ بِكُلِّ فَراغٍ بَيْنَ الأَحْجارِ ، وجَوانِبُ ثَوْبِهِ تَرْتَفِعُ حَوْلَ جَسَدِهِ إلى أَعْلى كَأَنَّها أَجْنِحةٌ . وَهٰكَذا أَخَذَ يَهْبِطُ حَتّى اخْتَفى خِلالَ الظِّلالِ عِنْدَ أَسْفَلِ جُدْرانِ الْقَلْعةِ .

كادَ جوناثان يُغْشى عليهِ مِنَ الْفَزَعِ ، ولَمْ يَكُنْ في أَوَّلِ الأَمْرِ قادِرًا على التَّفْكيرِ أَوِ التَّصَرُّفِ بِأَيَّةِ صورةٍ . ما هٰذا الدّراكولا ؟!

وأَخيرًا تَنَبَّهَ إلى أَنَّ الصَّليبَ الَّذي كانَ يَلْبَسُهُ حَوْلَ عُنُقِهِ قَدِ اشْتَبَكَ بِقِطْعةٍ مِنْ حَديدِ النّافِذةِ فَسَقَطَ خارِجَها . وَجالَ في خاطِرِهِ أَنَّ لِهٰذا الصَّليبِ قُوَّةً تَقْهَرُ دراكولا . أَمّا الآنَ وَقَدْ فَقَدَ الصَّليبَ ، فَقَدْ شَعَرَ بِالضَّعْفِ والْوَهَنِ ، فَتَمَدَّدَ فَوْقَ سَريرٍ في مُواجَهةِ النّافِذةِ مُنْتَظِرًا أَنْ تَعودَ إِلَيْهِ قُوَّتُهُ .

أَمّا الَّذي حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ مِنَ الْغَرابةِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ حُلْمًا مِنَ الأَحْلامِ . ذٰلِكَ أَنَّهُ — مَعَ أَنَّ عَيْنَيْهِ مُغْمَضَتانِ — كانَ على يَقينٍ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ وَحيدًا في الْحُجْرةِ . كانَتْ هُناكَ ثَلاثُ فَتَياتٍ يَرْقُبْنَهُ مِنْ خِلالِ الظِّلالِ ، وَيَتَحَدَّثْنَ في هَمْسٍ ، وحينما تَحَرَّكْنَ خارِجَ الظِّلالِ إلى حَيْثُ ضَوْءُ الْقَمَرِ رَأى ، مِنْ خِلالِ عَيْنَيْهِ نِصْفِ الْمَفْتوحَتَيْنِ ، أَنَّ الثَّلاثَ جَميعَهُنَّ كُنَّ جَميلاتٍ فاتِناتٍ . وَعِنْدَما ضَحِكْنَ كَشَفَ ضَوْءُ الْقَمَرِ عَنْ أَسْنانٍ طَويلةٍ بِيضٍ .

وعِنْدَما ازْدَدْنَ مِنْهُ قُرْبًا اسْتَطاعَ أَنْ يَرى الانْبِهارَ في عُيونِهِنَّ الْحُمْرِ ، وأَنْ يَسْمَعَهُ في أَنْفاسِهِنَّ ، وفي الطَّريقةِ الَّتي أَطْلَقْنَ بِها ضَحِكاتِهِنَّ . لَقَدْ كُنَّ شِرِّيراتٍ فاعْتَراهُ الذُّعْرُ مِنْهُنَّ ، ولكِنَّ شَيْئًا ما — في نَفْسِ الْوَقْتِ — جَعَلَهُ يُشارِكُهُنَّ في الانْبِهارِ وَيَرْغَبُ في أَنْ يَقْتَرِبْنَ مِنْهُ .

وَبَدا أَنَّ اثْنَتَيْنِ مِنْهُنَّ أَخيرًا تَدْفَعانِ الثّالِثةَ الشَّقْراءَ نَحْوَهُ ، فَتَقَدَّمَتْ وَانْحَنَتْ بِجِوارِ السَّريرِ وأَصْبَحَ خَدُّها مُلاصِقًا لِخَدِّهِ . وَأَحَسَّ جوناثان أَنْفاسَها في عُنُقِهِ كَما أَحَسَّ أَنَّ سِنَّتَيْنِ حادَّتَيْنِ مِنْ أَسْنانِها تُلامِسانِ بَشَرَتَهُ وتَسْتَقِرّانِ بِلُطْفٍ فَوْقَها . فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، وَانْتَظَرَ ما يَحْدُثُ وَهُوَ غَيْرُ قادِرٍ على الْحَرَكةِ ، بَلْ غَيْرُ راغِبٍ فيها .

* * *

وكانَ ما حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَشْبَهَ بِما يَحْدُثُ وَسْطَ عاصِفةٍ هَوْجاءَ . فَقَدْ أَحَسَّ أَنَّ الْكونْتَ مَوْجودٌ في الْحُجْرةِ ، أَحَسَّ بِهِ حَتّى قَبْلَ أَنْ يَرى يَدَهُ وَهِيَ تُطْبِقُ على عُنُقِ الْفَتاةِ الَّتي بِجِوارِ سَريرِهِ ويَقْذِفُ بِها عَبْرَ الْحُجْرةِ . كانَ غَضْبانَ غَضَبًا لَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ قَبْلُ . كانَ وَجْهُهُ في صُفْرةِ الْمَوْتِ . كانَتْ عَيْناهُ يَنْبَعِثُ مِنْهُما الشَّرَرُ ، وكانَ جَسَدُهُ كُلُّهُ يَرْتَجِفُ ارْتِجافًا .

صاحَ الْكونْتُ : « كَيْفَ تَجْرُؤْنَ على لَمْسِهِ ؟ كَيْفَ تَجْرُؤْنَ على عِصْيانِ أَوامِري ؟ »

فَقالَتْ إِحْداهُنَّ : « إِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَفْهَمَ . إِنَّكَ لَسْتَ امْرَأَةً . » ثُمَّ أَخَذْنَ جَميعًا يَضْحَكْنَ .

فصاح الكونت: «ألم أقل لكنّ ألّا يقترب أحدٌ منه؟»

فأجابت أخرى: «سيّدي، لقد كان يرقد هنا. ماذا كنّا نستطيع أن نفعل؟»

فقال دراكولا: «هذا الرجل لي وحدي، وإن أن أصبح في غير حاجة إليه، فحينئذٍ وحينئذٍ فقط..» ولم يكمل دراكولا عبارته، ولكنّ معناها كان واضحًا. جوناثان وسألت إحدى الفتيات وهي تنظر إلى الكيس الذي كان بجوار قدمي دراكولا: «إذًا ألن نحصل على شيء الليلة؟»

وإذا بالكيس يتحرّك فوق الأرض وتخرج منه صيحات كصيحات الأطفال. فدفع دراكولا الكيس بقدمه عبر الحجرة إليهنّ. فتكالبن عليه مثل الحيوانات الجائعة، على حين أخذت الصيحات من داخل الكيس تعلو ثمّ تعلو. وإذا بضباب يغشى الحجرة، وغلب على جوناثان نعاسٌ لم يستطع أن يقاومه. ولكنّ سرّ قلعة دراكولا لم يعد بالنسبة له سرًّا.. لقد كانت بنات مصّاصي دماء.



الفصل الرابع

حينما استيقظ جوناثان وجد نفسه فوق سريره في حجرته ، فهل كان الأمر مجرد حلم ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا إذن يرى ملابسه غير مرتبة طبقا لنظامه المألوف ؟ ولماذا يرى ساعته في غير مكانها المعهود ؟!

ارتدى جوناثان ملابسه ونزل إلى الباب المؤدي إلى الجزء الآخر من القلعة فوجده موصدا ، لا بطريقة عادية ، وإنما قد أوصد في عصبية وعنف حتى إن بعض قطع من الجدار قد تساقطت . إذا ، فإنه لم يكن حلما .

وفي المساء لم يشر الكونت بأي كلمة إلى الليلة الماضية ، ولكنه أخرج ورقا للكتابة ، وطلب من جوناثان أن يكتب ثلاث رسائل إلى مينا ؛ يقول في أولها إن عمله كاد ينتهي ، وإنه سوف يعود في خلال أيام قليلة ؛ ويقول في الثانية إنه سيعود في صباح اليوم التالي ؛ ويقول في الثالثة إنه غادر القلعة ووصل إلى بيستريتز .

قال الكونت : « إن البريد بطيء ، ولا أريد لأصدقائك أن يظنوا أن شيئا قد حدث لك ، وسوف أبعث بهذه الرسائل في الوقت المناسب ، وبذلك يعرفون متى يتوقعون ميعاد وصولك . »

قال جوناثان في نفسه : « هل أملك إلا الطاعة ؟ إنني تحت رحمته تماما . »

وبدأ اليوم التالي بداية طيبة ، فقد استيقظ على ضجيج أصوات .. أصوات رجال عاديين ، فجرى إلى نافذة حجرة المائدة وأطل منها ، فشاهد بعض الغجر في ركن من أركان ساحة الدار وهم ينزلون من عربة نقل صناديق خشبية طويلة . وكان وقوع بصره على أناس عاديين — حتى ولو كانوا من أولئك الغجر الترانسيلفانيين الحفاة — مما يبعث في النفس الأمل فها هنا — في ساحة الدار — رجال ضعفاء ربما يستطيعون أن يحملوا

رسالة منه إلى العالم الخارجي . وجرى إلى غرفته ليحضر أوراقا من حقيبته ، ولكن أين حقيبته بما فيها من بطاقات ونقود ؟ أين حلته التي كان يرتديها وقت السفر ؟ أين معطفه ؟ كل ذلك قد اختفى . ترى أي شر جديد كان دراكولا يدبره له ؟

وعندما عاد إلى النافذة كان الغجر قد رحلوا ، ولكنه ظل طوال اليوم يسمع أصوات حفر في القلعة . وتأكد له أن هناك شيئا يحدث ، فما هو ؟ ولكي يهتدي إلى هذا الشيء لم يكن أمامه إلا أن يراقب الكونت . وفي المساء جلس بجوار نافذة غرفة نومه في انتظار سماع صوت أصابع اليدين وأصابع القدمين وهي تتشبث بالجدار .

وما كادت الشمس تغيب حتى سمع هذا الصوت . وكان دراكولا قد خرج من النافذة ، وبدأ يتحرك إلى أسفل الجدار كما فعل في الليلة السابقة ، مع فارق واحد ، فقد كان في هذه المرة يلبس ملابس جوناثان .

وبدا كل شيء واضحا أمام جوناثان ، فالكونت ينوي أن يدع الناس يرونه في بيستريتز فيظنون أنه جوناثان ، ويقوم بإرسال الرسائل منها ، ومن ثم يعتقد الذين يتلقونها أن جوناثان في طريقه إلى بلاده . وكان لابد لجوناثان أن يهرب ، ولابد أن يحصل على مفتاح الباب ، ولكي يفعل ذلك فلابد أن يجد وسيلة لدخول حجرة الكونت .

وكانت هذه الحجرة تقع تحت حجرته تماما ، وهو يستطيع أن يتدلى بحبل إليها ، ولكن أين الحبل ؟ لم يكن الكونت ليترك مثل هذه الأشياء في متناول زائريه ، فأخذ يجيل النظر فيما حوله . وكانت الحجرة ذات ستائر طويلة ، ففكر أنه يستطيع أن ينزع القضيب النحاسي المتين الذي تتدلى منه الستائر ، ثم يثبت طرفيه في الجدار على جانبي النافذة ، ومن ثم تصبح الستارة مدلاة حتى نافذة الكونت . ويستطيع — بعد أن يتسلق النافذة — أن يتشبث بأطراف أصابع رجليه فيما بين أحجار الجدار من فراغات واسعة ، ومن ثم يهبط إلى حجرة الكونت . وقد يكون في هذه المغامرة شيء من الخطر ، ولكنه أمر لابد منه .



لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ ما يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَهُ في هٰذِهِ اللَّيْلَةِ . فَلَيْلٌ مَخاطِرُهُ في هٰذِهِ القَلْعَةِ وَفَوْقَ ذٰلِكَ ، فَمِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ الكُونْتُ قَدْ أَخَذَ المِفْتاحَ مَعَهُ ، وَلِذٰلِكَ قالَ في نَفْسِهِ : « لا بُدَّ أَنْ أَنْتَظِرَ حَتَّى الغَدِ . فَالكُونْت دراكولا لا يَظْهَرُ كَثيرًا في الصَّباحِ ، وَيَبْدو أَنَّهُ يَنامُ هٰذِهِ الفَتْرَةَ ، وَلِذٰلِكَ فَالصَّباحُ هُوَ الوَقْتُ المُناسِبُ » .

عِنْدَما جَلَسَ جوناثان عَلى حافَةِ النّافِذَةِ مُمْسِكًا بِالسِّتارَةِ كانَ يَتَمَنّى لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في هٰذا المَكانِ (وَلَمْ تَكُنْ هٰذِهِ هِيَ المَرَّةَ الأُولى الَّتي تَمَنّى فيها هٰذِهِ الأُمْنِيَةَ مُنْذُ وَفَدَ إِلى قَلْعَةِ دراكولا) وَلٰكِنَّ الأُمورَ سارَتْ كَما يَشْتَهي . وَلَمْ يَمْضِ إِلّا قَليلٌ حَتّى كانَ قَدِ اسْتَقَرَّ واقِفًا في حُجْرَةِ الكُونْت .

وَتَساءَلَ جوناثان في نَفْسِهِ : « أَهٰذِهِ حُجْرَةُ الكُونْت حَقًّا ؟ إِنَّها تَبْدو كَأَنْ لَمْ تُسْتَخْدَمْ مُنْذُ سَنَواتٍ ، فَالغُبارُ الكَثيفُ يُغَطّي كُلَّ ما فيها حَتّى مَجْموعَةً مِنَ النُّقودِ الذَّهَبِيَّةِ كانَتْ في أَحَدِ الأَرْكانِ . وَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ المَفاتيحَ لَيْسَتْ هُنا . فَيا تُرى هَلِ النُّزولُ عَلى هٰذِهِ السَّلالِمِ الحَجَرِيَّةِ يُؤَدّي إِلى غُرْفَةِ الكُونْت الحَقيقِيَّةِ ؟ »

وَشَرَعَ يَهْبِطُ السُّلَّمَ ، فَإِذا بِهٰذِهِ الرّائِحَةِ التُّرابِيَّةِ الغَريبَةِ الَّتي كانَتْ قَدِ انْبَعَثَتْ مِنْ أَنْفاسِ دراكولا تَزْكُمُ أَنْفَهُ ، وَكُلَّما ازْدادَ تَقَدُّمًا ، ازْدادَتِ الرّائِحَةُ قُوَّةً وَخُبْثًا كَما لَوْ كانَتْ تَنْبَعِثُ مِنْ حُجَرٍ تَعَفَّنَ

وَأَخيرًا انْتَهى إِلى غُرْفَةٍ ذاتِ أَرْضِيَّةٍ تُرابِيَّةٍ ، يَتَسَرَّبُ إِلَيْها الضَّوْءُ مِنْ نافِذَةٍ صَغيرَةٍ عالِيَةٍ . وَهُناكَ في أَقْصى الغُرْفَةِ كانَتْ تُوجَدُ الصَّناديقُ الَّتي أَحْضَرَها الغَجَرُ ، وَالَّتي تَبْلُغُ خَمْسينَ صُنْدوقًا وَكانَتْ كُلُّها مَمْلوءَةً بِالتُّرابِ ، وَعَلى مَقْرُبَةٍ مِنْها صُنْدوقٌ آخَرُ أَقْدَمُ مِنْ بَقِيَّةِ الصَّناديقِ .

كانَتْ أَشِعَّةُ شَمْسِ الصَّباحِ ، الَّتي بَدَأَتْ تَتَسَرَّبُ عِنْدَئِذٍ مِنَ النّافِذَةِ ، تَقَعُ عَلى هٰذا الصُّنْدوقِ . وَكَأَنَّما كانَتِ الشَّمْسُ تُرْشِدُ جوناثان إِلى الصُّنْدوقِ فَاتَّجَهَ إِلَيْهِ ، وَنَظَرَ في داخِلِهِ وَكانَتْ نَظْرَةً واحِدَةً فيها الكِفايَةُ ، لِكَيْ يَنْدَفِعَ إِلى الوَراءِ وَيُطْلِقَ صَيْحَةً مُدَوِّيَةً

كان دراكولا ينام مُمَدَّدًا على سرير من تراب ، ولم يكن وجهه شاحبًا باهتًا كما كان من قبل ، وإنما كان أحمر داكنًا ، ولم يكن شعره أسود كما عهده ، وإنما كان رماديًا عميقًا . وكان الدم يسيل من جانبي فمه منحدرًا إلى عنقه ومن ثم إلى ملابسه . كان جسمه كله متورمًا بالدماء التي تنبعث رائحتها ، أما وجهه فقد كانت تبدو عليه نظرة الحيوان المتوحش الذي قتل فريسته ثم أكل منها حتى بشم ولم يعد يستطيع المزيد .

كان على جوناثان أن يرغم نفسه إرغامًا على أن يلمس هذه الحقيبة الدموية التي هي جسم دراكولا . وإذ فعل ذلك ، لم يكن في وسعه أن يغادر المكان إلا بعد أن يفتش في جيوبه بحثًا عن المفتاح ، ولكن جيوبه كانت خالية . لقد كان دراكولا من الذكاء بحيث لا يدع نفسه تقع في مثل هذه المصيدة .

لقد أراد جوناثان — لأول مرة في حياته — أن يرتكب جريمة قتل لكي يقضي على هذا الشيء البغيض الذي يرقد في صندوقه . ونظر حوله فرأى حجرًا ثقيلًا كان قد سقط من الجدار ، فأخذه ورفعه إلى مافوق رأسه ، ولكنه تراجع فتركه يسقط على الأرض . لقد رأى أنه ليست هناك جدوى من محاولة قتل شيء لا يمكن أن يقتل . لقد كان واثقًا أن مصاصي الدماء لا يموتون كما يموت الناس العاديون .

عاد جوناثان إلى حجرته ، وارتمى فوق سريره في حالة من اليأس المرير . ها هو ذا الآن في موقف عصيب . ليس موقف سجين مصاص الدماء — حيث لا حول له ولا طول — فحسب ، ولكن هناك ما هو أسوأ من ذلك . لقد كان يقدم مساعدة جمة لمصاص الدماء لكي يجد دمًا جديدًا في بلد آخر .

وفي هذه الليلة ظهر الكونت في الوقت الذي تعود أن يظهر فيه . ولم يكن أحمر اللون أو متورم الجسم كما كان يبدو في أول النهار . قال الكونت .

« الليلة ياصديقي لابد أن يودع كل منا صاحبه ، فسوف تعود غدا إلى بلدك ، وأنا أيضا سأقوم برحلة . وفي الصباح سوف تأخذك عربتي إلى طريق بيستريتز حيث تصل إليها

في مساء الغد . وآمل أن أراك مرة ثانية في قلعة دراكولا . »

فسأل جوناثان : « لماذا لا أذهب الليلة ؟ »

فأجاب الكونت : « لأن عربتي مشغولة الليلة ياسيدي العزيز . »

قال جوناثان : « ولكنني أستطيع السير على قدمي . إنني أرغب في الرحيل الآن . »

قال الكونت : « وحقائبك ؟ »

قال جوناثان : « لا يهمني أمر حقائبي ، وأستطيع أن أرسل فيما بعد من يأخذها . »

فتبسم الكونت قائلًا : « تعال معي . إنك لن تبقى في منزلي ساعة أكثر مما تريد ، ولو أنني حزين لرحيلك وحزين لرغبتك في التعجيل بالرحيل . »

ومضى الكونت وجوناثان يتبعه إلى أسفل السلم حيث الباب الكبير . قال لجوناثان : « أصغ . »

وإذا بأصوات ذئاب كثيرة تنبعث من مكان قريب منهما وكأنما انبعثت هذه الأصوات بمجرد أن رفع دراكولا يده ، ثم شرع يفتح الباب الذي لم يكن موصدًا بقفل . ولم يكد يفتح قليلًا حتى علت أصوات الذئاب . واستطاع جوناثان أن يراها وهي تثب هنا وهناك وأفواهها المتعطشة الحمراء مفغورة على آخرها ، واستمر الباب يفتح شيئًا فشيئًا . وأدرك جوناثان أنه لا يقف فاصلًا بينه وبين الذئاب الشرسة الجائعة إلا الكونت . وبدأت الهواجس في نفسه . أهذا هو الذي كان الكونت يدبره ؟ أن يقدمه طعامًا سائغًا لهذه الحيوانات التي كانت تذهب وتجيء كأنها خدم ، والتي يسميها الكونت « أولاده » ؟

وأخيرًا صاح جوناثان : « أغلق الباب . سأنتظر حتى الصباح . »

نطق بالعبارة وهو يدير رأسه لكيلا يرى دراكولا دموعه التي لم يستطع أن يمنعها .

أما دراكولا فقد صفق الباب بشدة، وأخذت أصوات الذئاب تخفت بعدئذ وحانت التفاتة من جوناثان إلى الوراء وهو يصعد السلم عائدًا، فإذا الكونت يضحك بلا صوت.

بعد نصف ساعة سمع جوناثان أصوات خيول، وغناء الغجر في ساحة الدار. وتطلع من نافذته فرأى عربة النقل محملة بالصناديق الخشبية، وأدرك أن دراكولا كان في واحد منها .. في طريقه إلى إنجلترا.

واطمأن جوناثان إلى أنه سوف يكون في صبيحة اليوم التالي حرًا في مغادرته القلعة. وكان يعلم أنه لن تكون هناك عربة تقله، ولكنه يستطيع المشي على أية حال. ولم يكن يخشى الذئاب، لأن الوقت سيكون نهارًا، ودراكولا غائب، ولكن بقيت هناك مشكلة. صحيح أن دراكولا قد ذهب، وهذا جميل، ولكن الوقت ليل، ومخاطر الليل لم تذهب مع دراكولا. لقد كان وجود الكونت في القلعة يجعله بمأمن من هذه المخاطر. وتساءل في نفسه: «والآن، وقد ذهب، فمن الذي يحميني منها؟» وقفزت إلى خاطره الكلمات التي قالها دراكولا للفتيات الثلاث في تلك الليلة الليلاء: «وبعد أن أصبح في غير حاجة إليه.» والآن .. لقد حانت هذه اللحظة

وأخذ يصغي ... في البداية كان كل شيء هادئًا كل الهدوء. ثم بعد ذلك بدأ يسمع ضحكات، ثم حفيف ثوب حريري في الأركان، فتجمد الدم في عروقه، وتأكد أنه أصبح تحت رحمة هؤلاء النسوة، وفكر في نفسه: «ترى هل يقدر لي أن أرى إنجلترا، ومينا، مرة أخرى؟»

القسم الثاني
هويتبي

الفصل الخامس

كانت مينا موراي تجلس في مقعدها تتطلع إلى البحر وقد أمسكت برسالة في يدها. وكانت صديقتها لوسي وستنرا تجلس بجوارها وهي تقرأ كتابًا. ولم تكن تلحظ نظرة القلق التي في عيني مينا.

كانت مينا فتاة جميلة، ولكن لوسي كانت أكثر جمالًا. كانت ذات جمال فتان، رشيقة القوام، ذات شعر طويل أشقر، وبشرة صافية ملساء. وبذلك لم يكن غريبًا أن يقع كثير من الشبان في غرامها، ولو أنها لم تكن تميل حقًا إلا إلى اثنين فقط، أحدهما طبيب شاب ماهر يدعى جاك سيوارد، كان يتولى الإشراف على مستشفى للمجانين على مقربة من المنزل الذي تقيم به في مشارف لندن. والآخر يدعى آرثر هولموود، وهو ابن أحد اللوردات. وأخيرًا استقر اختيار لوسي على آرثر، ومع أنها كانت تحب جاك سيوارد كثيرًا فإنها رأت أن ما يتصف به من حدة ووقار لا يتفق مع ما تتصف هي به من حب للمرح والدعابة. ثم إنها لم تشأ أن تقضي بقية حياتها في دار للمجانين وفوق هذا فإن آرثر هو الذي كان يستأثر بحبها الحقيقي. وكان من الطبيعي أن يشعر الدكتور سيوارد بالحزن، ولكنه كان يحب آرثر هولموود، ولذلك فقد استقر رأيه في النهاية على أنه إذا لم يكن قد استطاع أن يظفر بلوسي زوجة له فإنه — على الأقل — يستطيع أن يظل صديقًا لها. وقال في نفسه: «من يدري، ربما تحتاج يومًا ما إلى صديق يحبك.»

وإذا كانت لوسي جميلة مسلية تفيض بالحيوية، فإن مينا هي التي كانت تدبر كل شيء دائمًا. فهي التي تولت حجز الغرف التي سوف تقيمان فيها في هويتبي. واشترت التذاكر للرحلة، واتخذت كذلك الترتيبات لأم لوسي لكي تلحق بهما فيما بعد. فقد كانت السيدة وستنرا — والدة لوسي — مريضة بالقلب، ورأت مينا أن قضاء أيام على

شاطئ البحرِ قدْ يعودُ على صحّتها بالخيْرِ .

كانتْ هويتبي مدينةً مأهولةً ، فهناكَ دائمًا زوارقُ للصيدِ تغدو منها وتروحُ ، وطيورُ البحرِ الصاخبةُ تُحلّقُ ثُمَّ تنقضُّ منَ السماءِ لتلتقطَ الأسماكَ التي يُلقي بها الصيّادونَ . وفي الناحيةِ الجنوبيّةِ للنهرِ الذي يجري في وادٍ عميقٍ مُخترقًا المدينةَ ، كانَ المرءُ يستطيعُ أنْ يتسلّقَ إلى الكنيسةِ القديمةِ حيثُ يلتمسُ الهدوءَ والسكينةَ ، وحيثُ كانتْ عظامُ الكثيرينَ منَ البحارةِ الذينَ غرقوا في البحرِ مُلقاةً في ساحةِ الكنيسةِ . وكانَ أهلُ المدينةِ يحبّونَ أنْ يجلسوا على المقاعدِ التي وُضعتْ على طولِ الممرِّ بينَ القبورِ حيثُ يستطيعُ المرءُ منْ ساحةِ الكنيسةِ أنْ يُشاهدَ المدينةَ كُلّها ، وأنْ يمتدَّ بصرُهُ إلى مسافةٍ بعيدةٍ فوقَ البحرِ .

وكثيرًا ما كانتْ مينا ولوسي تجلسانِ هناكَ تستمعانِ إلى قُدامى الصيّادينَ الذينَ اعتزلوا العملَ ، وكانوا يقضونَ وقتهمْ بينَ روايةِ القصصِ ، وبينَ الاستمتاعِ بالتحدّثِ إلى الفتياتِ الحسناواتِ .

قالتْ مينا وهيَ تُقلّبُ بينَ أصابعِها الورقةَ الرقيقةَ التي كُتبتْ فيها الرسالةُ : « إنّها رسالةٌ غريبةٌ .. تمامًا كالرسالتيْنِ الأخريَيْنِ . كُلُّ ما يقولُهُ فيها إنّهُ بخيْرٍ ، وإنّهُ في طريقِهِ إلى الوطنِ . قطعًا كانَ يستطيعُ أنْ يكتبَ أكثرَ منْ هذا . إنّهُ لمْ يخطَّ كلمةً واحدةً عنْ رحلتِهِ ، أوْ عنِ السيّدِ الذي يُقيمُ معَهُ . الواقعُ أنّها ليستْ رسالةً وديّةً . »

فضحكتْ لوسي وقالتْ : « أعتقدُ أنَّ الرجالَ ليسوا كالنساءِ في كتابةِ الرسائلِ ، فهمْ يجدونَ مشقّةً في تسجيلِ مشاعرِهمْ بالكتابةِ . »

فردّتْ مينا : « لعلّكِ على حقٍّ ياعزيزتي لوسي ، ولكنّني سأكونُ مسرورةً أنْ أراهُ ثانيةً ، وأنْ أتأكّدَ أنَّ كُلَّ شيءٍ على ما يُرامُ . لقدْ كانَ المفروضُ أنْ يعودَ إلى لندنَ منذُ أسبوعيْنِ . »

لمْ تكنْ مينا سعيدةً ، والعطلةُ التي بدأتْ بدايةً سارّةً بالنسبةِ لها انقلبتْ إلى تعاسةٍ بسببِ قلقِها على جوناثان . لقدْ كانَ لديْها إحساسٌ — لمْ تستطعْ أنْ تُعبّرَ عنْهُ بالكلماتِ — أنَّ هناكَ أمورًا لا تسيرُ في مسارِها الصحيحِ ، وهيَ تشعرُ أنَّ الأمورَ لنْ تعودَ إلى نصابِها إلّا إذا رجعَ جوناثان إلى الوطنِ . كذلكَ لمْ تكنْ لوسي على عادتِها ، وحينما رأتْها مينا كذلكَ

قالتْ لنفسِها : « أتُراها الهمومُ التي أعاني منها هيَ التي جعلتْ لوسي قلقةً ؟ أمْ أنَّ هناكَ سببًا آخرَ ؟ » والحقيقةُ أنَّ لوسي كانتْ قدْ بدأتْ تُمارسُ أمرًا لمْ تُمارسْهُ مُنذُ كانتْ طفلةً صغيرةً ؛ بدأتْ تمشي في أثناءِ نومِها . وفي أثناءِ الليلتيْنِ الماضيتيْنِ كانتْ مينا تستيقظُ منْ نومِها فتجدُ صديقتَها تمشي حولَ الحجرةِ على غيرِ هُدى ، كأنّها تُريدُ شيئًا ولكنّها لا تدري ما هوَ . أوْ ربّما كانَ الطقسُ هوَ السببَ ، فطوالَ اليومِ كانَ الجوُّ يبدو وكأنّما يُنذرُ بعاصفةٍ شديدةٍ ، وكانَ الهواءُ ساجيًا مُثقلًا بالسُحبِ ، والضبابُ يكادُ يحجبُ الشمسَ .

ومضتِ الفتاتانِ فترةَ ما بعدَ الظهرِ في هدوءٍ ، ثُمَّ خرجتا تتمشّيانِ نحوَ ساحةِ الكنيسةِ ـه . وحينما اجتازتا الجسرَ الذي يقعُ في وسطِ المدينةِ كانتا تريانِ زوارقَ الصيدِ وهيَ ... ومعَ أنَّ الريحَ لمْ تكنْ شديدةً ، والبحرَ لمْ يكنْ هائجًا فإنَّ الصيّادينَ كانوا يتوقّعونَ ... سيئًا ، ولمْ يشاؤوا أنْ يُبحروا خشيةَ أنْ تُدهمَهمُ العاصفةُ .

عندما وصلتِ الفتاتانِ إلى الكنيسةِ وجدتا أنَّ أحدَ أصدقائِهما الصيّادينَ المُسنّينَ يجلسُ على مقعدِهما المُفضّلِ يتطلّعُ إلى البحرِ . كانَ هذا الصيّادُ هوَ السيّدَ سويلز ، الشيخَ الذي كانَ يزعمُ أنَّ عُمرَهُ قاربَ المئةَ عامٍ ، ولوْ أنّهُ كانَ منَ الصعبِ تصديقُ مثلِ هذا الزعمِ . وسألتْهُ لوسي وهيَ تجلسُ بجانبِهِ : « أتظنُّ أنَّ عاصفةً ستهبُّ ياسيّدْ سويلز ؟ »

فأجابَ البحّارُ الشيخُ : « نعمْ ياعزيزتي ، وهوَ أمرٌ غريبٌ ، لأنَّ هذا الوقتَ منَ السنةِ ... وقتَ عواصفَ ، أنا ما رأيتُ طقسًا كهذا قطُّ . ومعَ هذا فإنَّ الطقسَ ليسَ هوَ الشيءَ الغريبَ الوحيدَ في هذهِ الأيامِ . »

قالَ هذا وهوَ يُشيرُ إلى البحرِ ، ثُمَّ أضافَ : « أنظرا إلى السفينةِ »

وتطلّعتِ الفتاتانِ فشاهدتا سفينةً شراعيّةً ليستْ كبيرةَ الحجمِ على بُعدِ حوالَى كيلو مترٍ منَ الشاطئِ .

وقالتْ لوسي : « عفوًا ياسيّدْ سويلز ، إنّنا كما ترى — لسنا منَ البحارةِ ، والسفينةُ تبدو لنا عاديّةً جدًا ، تُرى هلِ العلمُ الذي ترفعُهُ هوَ العلمُ الروسيُّ ؟ »



فأجاب البحار الشيخ : « نعم ، إنها سفينة روسية . هذا صحيح ، ولكن ليس هذا هو المهم ؛ إنها سفينة عادية ما في ذلك شك ، ولكن الأمر الشاذ هو أنها مسيرة بطريقة غير عادية . فهناك رجل عند عجلة القيادة ، ولكن السفينة تتحرك على غير هدى ، كأنما الرجل لا يدري أين يوجهها . انظروا ! إنها تمضي ثانية . إنها تتحرك حيثما تدفعها الريح . إن الرجل الذي يقف على عجلة القيادة لا يستطيع أن يحزم أمره ، أيأتي إلى هويتبي أم يستدير إلى البحر ويواجه العاصفة . ولكن إذا لم يحزم أمره على عجل فسوف ترتطم السفينة بالصخور . »

الفصل السادس

عندما ثارت العاصفة كانت هوجاء على غير العادة ؛ فقبل الساعة الثامنة مساء بقليل هبت الريح . وما إن حلت الساعة العاشرة حتى أخذت الأشجار تتمايل بعنف ، وسطوح المنازل تتطاير ، والأمواج العاتية تتكسر فوق السور البحري الذي يحمي مرسى زوارق الصيد . لقد كانت عاصفة من ذلك النوع الذي لا يتكرر حدوثه إلا مرة واحدة كل خمسين عاما ، والذي يروي عنه الأجداد للأحفاد .

ومن حسن الحظ أن معظم الزوارق كانت قد عادت إلى هويتبي بعد الظهر ، أما القلة التي تأخرت في العودة فقد لقيت بعض المشقة في الدخول . وعندما وصل آخر زورق من زوارق هويتبي كانت الجماهير التي تجمعت للمراقبة قد عادت إلى بيوتها ، فيما عدا قليلين الذين استثارهم الموقف ففضلوا البقاء على النوم ، لعل بعض القوارب تأتي بعد ذلك . ولكن الذي أتى كان شيئا آخر .

لم يره أحد في أول الأمر ، إذ لم يكن ينبعث منه أي ضوء ، ومن ثم كان ظهوره مفاجأة مفزعة تماما . فبينما لم يكن هناك في دقيقة من الدقائق شيء على الإطلاق ، فإذا هناك في الدقيقة التالية سفينة رفعت جميع أشرعتها ، والريح تدفعها من الخلف . وعندما مرت من خلال الفتحة التي في السور البحري تبين أنها السفينة الروسية التي جذبت اهتمام السيد سولز .

لماذا قضى الربان هذا الوقت الطويل لكي يتخذ قراره بالرسو في هويتبي ؟ وأي نوع من ربابنة هذا الذي يبحر بغير ضوء ، وفي ليلة عاصفة مثل هذه الليلة ؟

وعندما أصبحت السفينة أقرب شاهد المحتشدون على الشاطئ رجلا بجوار عجلة القيادة فتصايحوا وأخذوا يلوحون بالتحية ، ولكن لم يكن هناك جواب . وحينما صارت أكثر قربا بدا واحد منهم يتوقف عن الصياح ، ثم تلاه آخر .. وخيم سكون . كان الرجل مقيدا إلى العجلة ، وكان يحدق نحوهم بعينين لا تبصران . وتكشف الأمر ، فالسفينة قد شقت أعتى الأمواج ودخلت المرفأ بقيادة رجل ميت .

وتحركت السفينة نحو الجسر، وأحد الركاب القليلين الذين كانوا يقفون فوق ظهرها يجرون طلبًا للنجاة. ولو أن السفينة استمرت في سيرها لحطمت الجسر وحملته بعيدًا. ولكنها لم تستمر، فقد حدث في آخر لحظة أن تغير مجرى الريح فدفعت السفينة نحو الشاطئ الرملي الجنوبي للنهر. وكانت الدفعة قوية حتى إن الأشرعة والحبال وقطع الخشب هوت شديدة محدثة دويًا عاليًا. وحينئذ، وبينما كان الحشد الذي على الشاطئ المقابل يراقب ما يحدث، إذا بكلب ضخم أسود يندفع فجأة من وسط السفينة، كما لو كانت قوة الصدمة التي جعلت السفينة ترتطم بالأرض هي التي دفعته. وقفز الكلب عاليًا فوق الرجال، ثم أخذ يعدو متجهًا إلى الشوارع الضيقة التي تعلوها الكنيسة.

وفي الصباح التالي كانت العاصفة قد هدأت، وبكرت مينا بالخروج إلى المدينة حتى قبل أن تتناول الإفطار. وقد شجعها على هذا البكور أن الشمس مشرقة، والسماء زرقاء صافية، ثم أخبار هذا الوصول الغريب لسفينة الروسية في الليلة الماضية. ولم تكن لوسي قد نامت في الليل نومًا هادئًا، ولذلك رأت مينا أنه خير لها أن تتركها في فراشها.

كانت المدينة كلها تتحدث عن السفينة الروسية، وسرعان ما عرفت مينا كل شيء من السيد سويلر. عرفت أن الطبيب الذي فحص جثة ربان السفينة يرى أن الوفاة حدثت منذ أيام، وأن الربان هو الذي قيد نفسه إلى العجلة، وأن الحبل الذي قيد نفسه به قد شق جلده وتغلغل حتى العظم. ويبدو أن السفينة ديميتر لم تتخذ طريقها إلى هويتبي مصادفة، فقد كان أحد تجار المدينة يتوقع وصولها، إذ كان قد تلقى تفويضًا بتسلم صناديق خشبية معبأة تحملها السفينة، على أن يشحنها بعد ذلك إلى لندن بالقطار.

أما الكلب الأسود فلم يره أحد بعد ذلك، وكان من الغريب أن حيوانًا ضخمًا مثل هذا يمكن أن يختفي نهائيًا. ولكن مدينة هويتبي كانت أكثر أمنًا بدونه. وقد عثر الأهالي على كلب قوي ضخم من كلاب المدينة ميت وقد مزق نصف عنقه تمزيقًا وساد الاعتقاد أن كلب السفينة ديميتر هو الذي فعل به هذا

عادت مينا إلى المنزل، وأنبأت لوسي في أثناء تناول الإفطار ما عرفته من أخبار. ومع أن لوسي أبدت اهتمامًا بما سمعت فإن مينا لم يرقها حالها، فقد كانت تبدو في وجهها نظرة ناعسة حالمة. ورأت مينا أنها في حاجة إلى استنشاق الهواء النقي، فاقترحت عليها تقضي اليوم معها خارج المنزل. وحينما رجعتا في المساء عرفتا مزيدًا من الأخبار عن السفينة ديميتر مما نشرته صحف المساء. فقد عثروا على السجل الذي دون فيه ربان السفينة ملاحظاته اليومية عن الرحلة واستطاع أحد ربابنة هويتبي القدامى ممن يعرفون اللغة الروسية أن يترجم ما فيه إلى الإنجليزية. وهذا ما قرأته مينا ولوسي في صحيفة هويتبي بوست المسائية.

«أبحرت السفينة ديميتر من فارنا التي تقع على البحر الأسود وعلى ظهرها ربان ومساعد وخمسة من البحارة وطاهٍ. وفي البداية كان كل شيء يسير سيرًا حسنًا، ولكن بعد انقضاء نحو أسبوع لاحظ الربان أن رجاله يبدو عليهم القلق والانزعاج ويحاول الضابط الأول أن يهتدي إلى السبب، فلما استمع إليهم اعتقد أن ما يتحدثون به هراء، بل إنه قابله بغضب. وبعد مضي يومين على هذا اختفى أحد الرجال، وكان قد انتهى من نوبة المراقبة التي يقوم بها. وشوهد يغادر مكانه ليهبط من سطح السفينة إلى مضجعه، ولكنه في الحقيقة لم يذهب إلى سريره قط. وشاع بين الرجال جميعًا أن هناك أمرًا غير طبيعي في السفينة. وبعد مضي يومين آخرين روى أحد الرجال للربان أنه بينما كان في نوبته للمراقبة في الليلة الماضية شاهد رجلًا غريبًا يصعد إلى ظهر السفينة ويمشي متجهًا إلى الجزء الخلفي منها، وهناك اختفى تمامًا.

وحينئذ أمر الربان بتفتيش السفينة كلها، وكانت جميع الصناديق التي في القاع محكمة الإغلاق بحيث لا يستطيع أحد — إن كان مختبئًا فيها — أن يخرج منها على الإطلاق، وكانت الأربطة بينها محكمة بحيث لا يستطيع أحد أن يختبئ فيما بينها. ولم يسفر البحث عن وجود أحد، ولذلك عادت إلى رجال السفينة الطمأنينة، ولم يحدث ما يعكر صفوهم، إلى أن واجهوا جوًا عاصفًا في خليج بسكاي. هناك فقد رجل

آخرُ مِن البحّارة ، وبعْد ذلك فُقِدَ اثْنانِ آخران . وكان اختفاؤهُم جميعًا يتمّ بنفْسِ الطَّرِيقةِ الَّتي حدَثتْ مع الأوّلِ . وكانتْ نتيجةُ ذلِك أنّهُ لَمْ يرْضَ أحَدٌ بعْدَ ذلِك بالمُراقبةِ وحْدَهُ .

وعِنْدما بلَغوا القنالَ الإنكليزيّ استمرّ الجوّ العاصِف ، واستمرّ اختفاءُ الرِّجالِ حتّى لَمْ يبْقَ منْهُمُ العَدَدُ الكافي لِرفْعِ أشْرِعةِ السَّفينةِ وإنْزالِها . وفي النِّهايةِ لَمْ يكُنْ باقِيًا على ظهْرِ السَّفينةِ إلّا الرُّبّانُ ، والضّابطُ الأوّلُ .

« وإلى هُنا كانَ مِن الصَّعْبِ قِراءةُ المُلاحظاتِ المُدوّنةِ بالسِّجلّ ، ولٰكِن يبْدو أنّ الضّابطَ الأوّلَ جُنّ جُنونُهُ فراحَ يفْتحُ الصّناديقَ الَّتي في قاعِ السَّفينةِ . ولَمْ يكَدْ يفْعَلُ ذلِكَ حتّى صاحَ صَيْحةً ثُمّ جرى إلى ظهْرِ السَّفينةِ وقفزَ إلى أعْماقِ البَحْرِ . وبَعْد هٰذا أصْبحتْ كلِماتُ السِّجلّ مُستعْصيةً على القِراءةِ . »

وفي اليَوْمِ التّالي شُيّعتْ جِنازةُ رُبّانِ السَّفينةِ الَّذي اعْتقدَ صيّادو هُويتْبي أنّهُ كانَ بحّارًا شُجاعًا ، وأنّهُ أدّى واجبَهُ خيْرَ ما يكونُ الأداءُ . وقدْ سارَ في جِنازتِهِ جمْعٌ غفيرٌ مِنَ النّاسِ ، وسارتْ معَهُمْ مِينا ولُوسي . ولٰكِنّ مِينا ــ بعْدَ ذلِكَ ــ تمنّتْ لوْ أنّها لَمْ تكُنْ صَحِبتْ معَها لُوسي ، وذٰلِكَ لأنّهما سمِعتا في الجِنازةِ أخْبارًا سيّئةً .

كانَتا تتوقّعانِ أنْ تريا صَديقَهُما المُسِنّ السَّيّدَ سْوِيلز . لمْ يكُنْ هُناكَ وجاءَ إليْهِما أحَدُ رِفاقِهِ الصّيّادين المُسِنّين وأخْبرَهُما أنّ السَّيّدَ سْوِيلز قدْ وُجِدَ ميْتًا وهُوَ جالسٌ على مَقْعدِهِ المُعْتادِ في ساحةِ الكنيسةِ ، والسَّبَبُ أزْمةٌ قلْبيّةٌ . صحيحٌ أنّ الرّجُلَ كانَ شيْخًا كبيرًا ، ولٰكِنّ مِينا كانتْ ترى أنّهُ في غايةِ القُوّةِ . وقدْ قرّرَ الطّبيبُ الّذي فحَصَهُ أنّهُ يبْدو مِن النَّظْرةِ الّتي كانتْ في عيْنيْهِ أنّ شيْئًا ما قدْ أفْزعَهُ . ولٰكِنْ ما الّذي يُمْكِنُ أنْ يكونَ في ساحةِ الكنيسةِ الهادِئةِ هٰذِهِ لكيْ يُفْزِعَ رجُلًا مُسِنًّا فيَقْضي عليْهِ ؟!

الفصلُ السّابعُ

في هٰذِهِ اللَّيْلةِ استيْقظتْ مِينا مِنْ نوْمِها وقدِ انتابَها شُعورٌ غريبٌ . كانَ هُناكَ فراغٌ في الحُجْرةِ ، وحتّى قبْلَ أنْ تنْهضَ مِنْ فِراشِها وتنْظُرَ ، كانتْ تُحِسُّ أنّ لُوسي ليْستْ بالحُجْرةِ . اتّجهتْ إلى البابِ فوجَدتْهُ مُغلَقًا ولٰكِنّهُ لَمْ يكُنْ مُوصَدًا بالمِزْلاجِ كما تركَتْهُ . ارتدَتْ مِعْطفًا وحِذاءً ، وسارعتْ بالنُّزولِ إلى القاعةِ السُّفْلى ، فإذا بها تجِدُ البابَ الأماميَّ لِلْمنْزِلِ نِصْفَ مفْتوحٍ ، فتأكّدتْ أنّ لُوسي لابُدّ قدْ خرجتْ . ولَمْ تكُنْ لدى مِينا فِكْرةٌ واضِحةٌ عنِ المكانِ الّذي قصَدَتْهُ . ولٰكِنّها ما كادتْ تخْطو خارِجَ المنْزِلِ حتّى سمِعتِ السّاعةَ تدُقّ الواحِدةَ . لقدْ كانتْ ساعةَ الكنيسةِ مِمّا جعلَ فِكْرَها يتسابَقُ إلى هُناكَ . لقدْ كانتا تذْهبانِ إلى ساحتِها كُلَّ يوْمٍ تقْريبًا ، فلعلّ لُوسي قادتْها قدَماها إلى هُناكَ وهِيَ نائمةٌ .

كانتِ اللّيْلةُ حالِكةَ الظَّلامِ ، ولٰكِنْ كانَ هُناكَ ضوْءٌ فُجائيٌّ ينْبعِثُ بيْنَ الحينِ والحينِ كُلّما دفعتِ الرّيحُ تجمُّعاتِ السُّحُبِ المُتكسّرةِ لِتجْتازَ وجْهَ القمرِ . وحينما وصلتْ مِينا إلى طرَفِ ساحةِ الكنيسةِ كانَ هُناكَ مِنَ الظّلامِ أكْثرُ مِمّا كانَ مِنَ الضّوْءِ . ولٰكِنْ ، في هٰذِهِ اللّحظةِ ذاتِها انبعثَ ضوْءُ القمرِ السّاطِعُ ، وتملّكتْها الفرْحةُ حينَ رأتْ صديقتَها مُضطجِعةً فوْقَ مقْعدِها المُعْتادِ ، المقْعدِ نفْسِهِ الّذي ماتَ فوْقَهُ السّيّدُ سْوِيلز المِسْكينُ . وفي نفْسِ اللّحْظةِ تقْريبًا جاءتِ السّحابةُ التّاليةُ لِتُغطّيَ القمرَ ثانيةً ، ولٰكِنّ مِينا اعْتراها إحْساسٌ ــ في خِلالِ اللّحْظةِ الّتي انبعثَ فيها ضوْءُ القمرِ ــ أنّ لُوسي لَمْ تكُنْ وحْدَها ، فلقدْ شاهدَتْ في ظِلّ المقْبرةِ الكائنةِ خلْفَ المقْعدِ شكْلًا ما ، ولَمْ تستطِعْ أنْ تُحدّدَ ما إذا كانَ شكْلَ إنسانٍ أوْ حيوانٍ . ولٰكِنّ هُناكَ شيْءٌ طويلٌ يجْثُمُ فوْقَ جِسْمِ لُوسي .

وصاحتْ مِينا : « لُوسي ! لُوسي ! »

ثُمّ جرَتْ نحْوَها ، ولٰكِنْ عِنْدما وصلتْ إلى المقْعدِ كانتْ لُوسي وحْدَها . كانتْ لا تزالُ نِصْفَ مُضطجِعةٍ ، ورأْسُها فوْقَ ظهْرِ المقْعدِ ، أمّا عُنُقُها فكانَ مكْشوفًا . وتوقّفتْ

ميا وهي تسأل نفسها: «ترى، ألوسي التي تحلم، أم إنني أنا الحالمة؟ إن ضوء القمر — عادة — يجعل المرء يتصور أشياء غير موجودة، ومع هذا فإنني أحس إحساسًا أكيدًا أنه كان معها شيء ما، أو شخص ما.»

كانت لوسي مستغرقة في نوم عميق، ولكنها كانت تتنفس بطريقة غير طبيعية تنفسًا سريعًا مضطربًا. وجلست ميا على المقعد بجوارها لحظات وهي حيرى: ماذا تفعل بعد هذا؟ قد يكون من الخطر أن توقظها دفعة واحدة، ولكن — في نفس الوقت — قد تصاب بالبرد إذا تركت على حالها هذه فترة طويلة. خلعت ميا معطفها وطوقتها به، وفي أثناء ذلك سقط الزر العلوي من المعطف، فأخذت المشبك المرصع الذي كانت تلبسه ثم شبكت به الفتحة من ناحية عنقها. ويبدو أن المشبك انغرز في جلدها، إذ إن لوسي صرخت صرخة ألم ووضعت يدها على عنقها. ثم خلعت ميا حذاءها ووضعته في قدمي لوسي، وساعدتها على المشي ببطء. وشيئًا فشيئًا عادت إليها الحياة من جديد، وعادتا إلى المنزل حيث كانت الشوارع خالية.

وفي صبيحة اليوم التالي تركت ميا صديقتها تنام حتى وقت متأخر، وحينما استيقظت، كان يبدو على وجهها الشحوب، ولكنها لم تصب بالبرد. أما العاقبة السيئة التي خرجت بها من تجربة الليلة الماضية فهي نقطتان صغيرتان حمراوان في عنقها. وأخذت ميا تلوم نفسها إذ لم تكن حريصة حينما استخدمت المشبك، ولكن لوسي طمأنتها وقالت إنها لا تحس بألم فيهما، وكان يبدو عليها أنها لا ترغب في الخوض في هذا الموضوع.

في تلك الليلة كانت ميا تأمل أن تنام لوسي نومًا أهدأ مما كان في الليلة الماضية، ولكن الأمر لم يكن كذلك. فحينما حان وقت النوم، لم تكتف ميا بإيصاد الباب بالمفتاح فحسب، بل إنها أخذت المفتاح معها في فراشها أيضًا، وكان هذا من حسن الحظ لأنها سمعت لوسي وهي تنهض من فراشها وتحاول فتح الباب مرة أولى وثانية. وفي المرة الثالثة استيقظت ميا لتجد لوسي تسحب الستائر إلى الخلف، وخشيت أن

تسقط من النافذة فأخذتها إلى فراشها، ثم أعادت الستائر إلى حيث كانت.

كان القمر لا يزال بدرًا كاملًا. وكان كل شيء في الخارج يبدو جميلًا أخاذًا. وكان الهدوء مخيمًا فيما عدا خفاشًا ضخمًا كان يحوم في دوائر واسعة، ويقترب حتى يكاد يلتصق بالنافذة. ولكن يبدو أن ظهور ميا قد أفزعه، فأخذ يطير عبر الوادي في اتجاه الكنيسة.

كانت صحة لوسي تزداد سوءًا، وكان ذلك منبعث قلق لميا. وكانت تصرفات لوسي في معظم الأوقات هي تصرفات الصديقة الودود التي عرفتها ميا منذ زمان طويل وأحبتها. ولكن — في أوقات أخرى — كانت تبدو وكأنها شخص غريب، وكانت لوسي دائمة الشحوب والإرهاق في الأيام الأخيرة. ولذلك كتبت ميا إلى والدة لوسي تطلب منها أن تعجل بالحضور إلى هويتبي. صحيح أنه كانت هناك خطورة في تحميل السيدة وسترا مشقات السفر بسبب قلبها الضعيف. ولكن إذا كانت لوسي مريضة فإن من حق أمها أن تعرف. كذلك طلبت ميا من لوسي أن تعرض نفسها على طبيب، فاستجابت لها وهي غير راضية كل الرضا. وقد قرر الطبيب أنها لا تعاني من أي مرض، وإنما هي في حاجة إلى الراحة والهدوء.

ولم تشأ ميا أن تسأل لوسي عن موضوع مشيها في أثناء النوم، إذ وجدت أنه من الخير ألا تفهمها بالحديث المباشر فيه عقب وقوعه. ولكن، بعد ظهر أحد الأيام، وبينما كانتا تجتازان ساحة الكنيسة وجدت ميا أن الوقت مناسب لكي تطرق الموضوع. وفكرت أنه إذا كان هناك ما يقلق لوسي فإن التحدث فيه ربما يساعدها ويكون خيرًا لها، ولذلك سألتها: «بم كنت تحلمين في تلك الليلة حينما خرجت إلى هناك؟»

فأجابت لوسي متسائلة: «هل كنت أحلم؟ نعم، لابد أنه كان حلمًا، ولكنه بدا كالحقيقة تمامًا. لقد أحسست برغبة شديدة في أن أكون في ساحة الكنيسة. ومع هذا، فلست أدري لماذا؟ ذلك لأنني أذكر أنني كنت خائفة من شيء ما أيضًا. ومع

نِّي لابُدَّ كُنْتُ نائِمةً . فإنّني أتذكَّرُ سَيْري في الشَّوارِعِ ، وَخُيِّلَ إليَّ أنَّ المَدينةَ مُمْتَلِئَةٌ بِالكِلابِ . كانَتِ الضَّوضاءُ على أشُدِّها ، وَعِنْدَما كُنْتُ أعْبُرُ الجِسْرَ إذا بِسَمَكَةٍ تَقْفِزُ ، فَتَوَقَّفْتُ كَيْ أُجيلَ بَصَري في الماءِ . ثُمَّ صَعِدْتُ إلى الكَنيسةِ وَبَدا لي كأنَّني لا أزالُ أُحَدِّقُ في الماءِ ، وَأنَّني أغوصُ فيه . في ماءٍ عَميقٍ أخْضَرَ ، وَكانَ هُناكَ شَيْءٌ طَويلٌ قاتِمٌ ذو عَيْنَيْنِ حَمْراوَيْنِ ، وَانْتابَتْني مَشاعِرُ مِنَ اللَّذَّةِ وَالخَوْفِ وَالألَمِ جَميعًا . ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ أذْكُرُ أنَّكِ كُنْتِ بِجانِبي على المَقْعَدِ . هَلْ كُنْتِ أنْتِ ؟ أمْرٌ عَجيبٌ حقًّا »

قالَتْ هٰذا ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ في الضَّحِكِ .

لَمْ يَرُقْ مِينا أنْ تَرى لُوسي تَضْحَكُ بِهٰذهِ الطَّريقةِ ، فَقَدْ كانَتْ ضَحْكَتُها غَيْرَ طَبيعيَّةٍ . كما أحَسَّتْ أنَّ لُوسي لَمْ تُخْبِرْها بِكُلِّ ما كانَتْ تَذْكُرُهُ عَنْ هٰذهِ اللَّيْلَةِ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تُحاوِلْ أنْ تُلِحَّ عَلَيْها لِكَيْ تُخْبِرَها بِالمَزيدِ . ذلِكَ لأنَّ لُوسي قالَتْ إنَّها تَشْكو مِنْ صُداعٍ ، وَقَدْ أوَتْ إلى فِراشِها عَقِبَ عَوْدَتِها إلى المَنْزِلِ مُباشَرَةً . أمّا مِينا فَقَدْ جَلَسَتْ تَكْتُبُ بَعْضَ الرَّسائِلِ حَتّى العاشِرَةِ . وَأحَسَّتْ أنَّها في حاجَةٍ إلى الهَواءِ الطَّلْقِ فَخَرَجَتْ تَمْشي حَتّى مَكْتَبِ البَريدِ في المَدينةِ . وفي طَريقِ العَوْدَةِ مَرَّتْ بِبُقْعَةٍ تَسْتَطيعُ أنْ تَرى مِنْها ظَهْرَ المَنْزِلِ الَّذي تُقيمانِ فيهِ ، وَلَمْ يَكُنِ القَمَرُ بَدْرًا كَما كانَ في اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ لا يَزالُ ساطِعًا . وَحينَما رَفَعَتْ بَصَرَها إلى نافِذَةِ حُجْرَةِ نَوْمِهِما أخَذَتْها الدَّهْشَةُ إذْ شاهَدَتْ لُوسي فَلَوَّحَتْ لَها بِيَدِها ، وَلٰكِنَّ لُوسي لَمْ تُبادِلْها التَّحيَّةَ ، وَإنَّما كانَتْ تَسْتَنِدُ عَلى حافَةِ النّافِذَةِ كَما لَوْ كانَتْ نائِمَةً . وَفي التَّوِّ خَطَرَ عَلى بالِ مِينا ما حَدَثَ في لَيْلَةِ ساحَةِ الكَنيسةِ ، وَالشَّكْلُ الغَريبُ الَّذي خُيِّلَ إلَيْها وَقْتَئِذٍ أنَّهُ جاثِمٌ فَوْقَ صَديقَتِها . وَهٰكَذا لِلْمَرَّةِ الثّانيةِ ، بَدا كَما لَوْ أنَّ شَيْئًا ما مُتَمَدِّدٌ أمامَ وَجْهِها عَلى حافَةِ النّافِذَةِ ، وَبَدا أشْبَهَ بِجَناحِ طائِرٍ أوْ خُفّاشٍ . هَرْوَلَتْ مِينا إلى المَنْزِلِ ، وَسارَعَتْ إلى ارْتِقاءِ السُّلَّمِ وَثْبًا . وَحينَما دَخَلَتِ الحُجْرَةَ ، كانَتْ لُوسي في فِراشِها مُسْتَغْرِقَةً في نَوْمٍ عَميقٍ . كانَتْ تَتَنَفَّسُ تَنَفُّسًا سَريعًا مُضْطَرِبًا كَما فَعَلَتْ في ساحَةِ الكَنيسةِ ، وَكانَتْ تَشُدُّ مَفْرَشَ السَّريرِ بِقُوَّةٍ حَوْلَ عُنُقِها . اتَّجَهَتْ مِينا إلى النّافِذَةِ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أيُّ شَيْءٍ



لَمْ تَكُنِ الأيّامُ القَليلةُ التّاليةُ سَعيدَةً بِالنِّسْبَةِ لِمينا . كانَتْ لُوسي تَأْكُلُ وَتَنامُ ، وَكانَتْ تَسْتَنْشِقُ الهَواءَ الطَّلْقَ كَثيرًا ، وَمَعَ ذلِكَ كانَتْ تَزْدادُ شُحوبًا وَضَعْفًا . وَأيًّا كانَ رَأْيُ الطَّبيبِ فَلَيْسَ هُناكَ شَكٌّ في أنَّها كانَتْ مَريضَةً . أمّا الجُرْحانِ الصَّغيرانِ في عُنُقِها فَإنَّهُما لَمْ يَتَحَسَّنا . كانا لا يَزالانِ مَفْتوحَيْنِ ، بَلْ لَقَدْ زادا اتِّساعًا ، وَكانَتْ مِينا تَرْجو ألّا يَكونَ عَدَمُ حِرْصِها هُوَ السَّبَبُ في مَرَضِ لُوسي .

وَأخيرًا قالَتْ مِينا : « لابُدَّ أنْ نَسْتَشيرَ طَبيبًا آخَرَ بِلُوسي ، سَوْفَ أكْتُبُ إلى دُكْتور سِوارْد »

الفَصْلُ الثّامِنُ

حِينَما نَزَلَتْ مِينا لِتَتَناوَلَ طَعامَ الإفْطارِ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي وَجَدَتْ خِطابًا لَها قُرْبَ مَكانِ جُلوسِها إلى المائِدَةِ . وَإذْ وَقَعَ بَصَرُها عَلى خاتَمِ بُودابِسْت عَلى طابَعِ البَريدِ صاحَتْ : « أخيرًا ! لابُدَّ أنْ يَكونَ مِنْ جوناثان . »

وَلٰكِنْ حِينَما رَأَتْ أنَّ الكِتابَةَ عَلى الظَّرْفِ لَيْسَتْ بِخَطِّ جوناثان عادَتْ إلَيْها أسْوَأُ مَخاوِفِها .

« السَّيِّدَةُ العَزيزَة

أكْتُبُ إلَيْكِ بِناءً عَلى رَغْبَةِ السَّيِّدِ جوناثان هارْكَر الَّذي لا يَمْلِكُ القُوَّةَ الكافِيَةَ لِكَيْ يَكْتُبَ بِنَفْسِه ، وَلَوْ أنَّهُ يَتَحَسَّنُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَشُكْرًا للهِ وَلِسانْت جُوزيف . لَقَدْ كانَ تَحْتَ رِعايَتِنا طَوالَ الأسابيعِ الأرْبَعَةِ الماضِيَةِ ، وَقَدْ طَلَبَ مِنِّي أنْ أبْعَثَ إلَيْكِ بِحُبِّه ، كَما طَلَبَ أنْ أكْتُبَ إلى السَّيِّدِ بِيتَر هوكِينز في إكْسِتَر بِإنْجِلْتِرا ، لأُخْبِرَهُ أنَّ عَمَلَهُ قَدْ تَأخَّرَ ، وَأنَّهُ يَأسَفُ لِتَأخُّرِهِ في العَوْدَةِ . إنَّهُ في حاجَةٍ إلى بِضْعَةِ أسابيعَ أُخْرى مِنَ الرّاحَةِ في دارِنا الَّتي تَقَعُ فَوْقَ التِّلالِ ، ثُمَّ يَعودُ بَعْدَها إلى إنْجِلْتِرا . كَما طَلَبَ أنْ أُخْبِرَكِ أنَّهُ في حاجَةٍ إلى نُقودٍ ، إذْ يَرْغَبُ في سَدادِ نَفَقاتِ إقامَتِهِ هُنا ، وَذٰلِكَ لِكَيْ تَتَمَكَّنَ دارُنا مِنْ تَقْديمِ العَوْنِ لأولٰئِكَ الَّذينَ يَحْتاجونَ إلَيْهِ .

المُخْلِصَـــــــــــة

الأخْتُ أغاثا

مُسْتَشْفى سانْت جُوزيف »

وَقَدْ ذُيِّلَتْ بِعِباراتٍ أُخْرى كَتَبَتْها الأخْتُ أغاثا :

« سَيِّدُ هارْكَر نائِمٌ الآنَ ، وَقَدْ وَجَدْتُ مِنَ الأفْضَلِ أنْ أفْتَحَ الرِّسالَةَ لأُضيفَ المَزيدَ . حِينَما جاءَ إلَيْنا كانَ يَتَحَدَّثُ في هِياجٍ عَنِ الذِّئابِ وَالدِّماءِ وَمَصّاصي الدِّماءِ ، وَيَبْدو أنَّهُ قَدْ حَدَثَ لَهُ شَيْءٌ غَريبٌ مُفْزِعٌ — وَرُبَّما شِرِّيرٌ — حَتّى لَقَدْ صارَتِ الأُمورُ كُلُّها مُخْتَلِطَةً في عَقْلِهِ . وَلَقَدْ وَجَدْنا مِنَ الأفْضَلِ ألّا نُوَجِّهَ إلَيْهِ أيَّ سُؤالٍ . لَقَدْ وَصَلَ إلى بُودابِسْت

بِالقِطارِ قادِمًا مِنْ بِسْتريتز دونَ تَذْكِرَةِ سَفَرٍ ، وَفي حالَةٍ شَديدَةٍ مِنَ الاضْطِرابِ . وَكُنّا نَوَدُّ أنْ نَكْتُبَ إلَيْكِ مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنَّ حالَتَهُ لَمْ تَكُنْ تَسْمَحُ بِذٰلِكَ . أمّا الآنَ فَقَدْ أصْبَحَ قادِرًا عَلى أنْ يَتَحَدَّثَ إلَيْنا ، وَأنْ يَكونَ لِكَلامِهِ مَعْنًى . »

وَحِينَما ظَهَرَتْ لُوسي صاحَتْ مِينا : « أوه يالُوسي ! إنَّهُ بِخَيْرٍ . لَقَدْ جاءَتْني الأخْبارُ أخيرًا . لَمْ أكُنْ أظُنُّ قَطُّ أنَّ السَّعادَةَ سَوْفَ تَغْمُرُني حِينَ أعْلَمُ أنَّهُ يَرْقُدُ في مُسْتَشْفى ، وَلٰكِنَّهُ — عَلى الأقَلِّ — لَمْ يَخْتَفِ . إنَّهُ — عَلى الأقَلِّ — لَمْ يَمُتْ . لابُدَّ أنْ أذْهَبَ إلَيْهِ بِقَدْرِ ما أسْتَطيعُ مِنْ سُرْعَةٍ . »

وَهٰكَذا ، اتَّخَذَتْ مِينا الإجْراءاتِ اللّازِمَةَ . أرْسَلَتِ الخِطاباتِ وَالبَرْقِيّاتِ إلى السَّيِّدِ هوكِينز ، وَإلى الأخْتِ أغاثا ، وَاشْتَرَتْ تَذاكِرَ السَّفَرِ بِالسَّفينَةِ وَالقِطارِ . وَقَدْ رَدَّ عَلَيْها سَيِّدُ هوكِينز بِرِسالَةٍ رَقيقَةٍ ، وَكانَ مِنْ رَأْيِهِ أنَّها سَوْفَ تَكونُ فِكْرَةً طَيِّبَةً بِالنِّسْبَةِ لِمِينا وَجوناثان أنْ يَعْقِدا قِرانَهُما في بُودابِسْت ، وَتَعَهَّدَ أنْ يَتَوَلّى هُوَ اتِّخاذَ الإجْراءاتِ اللّازِمَةِ .

أمّا لُوسي — وَقَدِ اسْتَشْعَرَتْ ما غَمَرَ مِينا مِنْ سَعادَةٍ — فَقَدْ بَدَأَتْ حالُها تَتَحَسَّنُ قَليلًا . وَلٰكِنَّها كانَتْ لا تَزالُ بَعيدَةً عَنِ الشِّفاءِ ، وَكانَتْ مِينا تَضَعُ أمَلَها في وُصولِ السَّيِّدَةِ وِسْتِنْرا ، وَما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ أثَرٍ طَيِّبٍ .

وَقالَتْ مِينا ، لِلْمَرَّةِ العِشْرينَ مُنْذُ وُصولِ رِسالَةِ الأخْتِ أغاثا : « أوه يالُوسي ! إنَّني لا أسْتَطيعُ الانْتِظارَ لِكَيْ أراهُ ثانِيَةً ! »

كانَتِ الفَتاتانِ في مَحَطَّةِ هُويتْبي تَنْتَظِرانِ القِطارَ الَّذي يُقِلُّ السَّيِّدَةَ وِسْتِنْرا . وَقالَتْ لُوسي ، لِلْمَرَّةِ الحادِيَةِ وَالعِشْرينَ عَلى الأقَلِّ خِلالَ هٰذا الأسْبوعِ :

« كَمْ أتَمَنّى لَوِ اسْتَطَعْتُ أنْ أتَزَوَّجَ بِسُرْعَةٍ مِثْلِكِ . إنَّكِ لَفَتاةٌ سَعيدَةٌ حَقًّا يامينا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ اللّوردُ غودالْمِينغ والِدُ آرْثَر مَريضًا لاسْتَطَعْنا — آرْثَر وَأنا — أنْ نَتَزَوَّجَ أيْضًا في هٰذا الصَّيْفِ . عَزيزي المِسْكينُ ، إنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَبْتَعِدَ عَنِ المَنْزِلِ . »

وَلَمْ تَكُنْ لُوسي تَتَحَدَّثُ كَثيرًا عَنْ آرْثَر في أثْناءِ الأسابيعِ القَليلَةِ الماضِيَةِ ، وَلِذٰلِكَ

سُرَّتْ مِينا حِينَما سَمِعَتْها تَتَحَدَّثُ ثانِيةً ، وَتَمَنَّتْ هِيَ كَذٰلِكَ لَوْ أَنَّ آرْثَر كانَ يَمْلِكُ الحُرِّيَّةَ لِكَيْ يَأْتِيَ إِلى هُوِيتْبي . إِنَّ لُوسي في حاجَةٍ إِلى عَوْنٍ مِنْ رَجُلٍ يَقِفُ بِجانِبِها .

وفي هٰذِهِ اللَّحْظَةِ لاحَظَتْ مِينا أَنَّ هُناكَ قِطارَ بَضائِعَ يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ لِيُغادِرَ المَحَطَّةَ ، وَكانَتْ مُعْظَمُ أَحْمالِ القِطارِ مِنَ الأَسْمَنْتِ الَّذي يَنْقُلُهُ إِلى لَنْدَن ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَحْمِلُ شَيْئًا آخَرَ كَذٰلِكَ .

صاحَتْ مِينا : « ما هٰذِهِ الصَّناديقُ المَحْمولَةُ في عَرَباتِ القِطارِ المَكْشوفَةِ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُها مِنْ قَبْلُ . عَجَبًا ! مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّها الصَّناديقُ الَّتي كانَتْ في السَّفينَةِ دِيميتِر . »

وَعادَتْ بِها الخَواطِرُ إِلى العاصِفَةِ ، وَإِلى السَّفينَةِ ، وَإِلى الرُّبّانِ المَيِّتِ . كَمْ هُوَ مُؤْسِفٌ أَنْ يَموتَ رِجالٌ كَثيرونَ في سَبيلِ إِحْضارِ قَليلٍ مِنَ الصَّناديقِ إِلى إِنْجِلْترا . قالَتْ لُوسي حِينَما مَرَّتْ بِها العَرَباتُ المَكْشوفَةُ : « إِنَّني أَشْعُرُ بِالبُرودَةِ . »

وَالواقِعُ أَنَّها بَدَتْ هَشَّةً وَقَدْ كَساها الشُّحوبُ الشَّديدُ ، وَانْتابَها المَرَضُ . وَكانَ قِطارُ البَضائِعِ قَدْ خَرَجَ مِنَ المَحَطَّةِ في نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتي ظَهَرَ فيها القِطارُ الَّذي يُقِلُّ السَّيِّدَةَ وِسْتِنْرا قادِمًا . فَقالَتْ مِينا وَقَدْ طَوَّقَتْ صَديقَتَها بِذِراعَيْها : « كُلُّ شَيْءٍ سَوْفَ يَكونُ أَحْسَنَ الآنَ . »

تَنَفَّسَتْ لُوسي نَفَسًا عَميقًا وَقالَتْ : « آهٍ يامِينا ! عَزيزَتي مِينا ! إِنَّني آمُلُ أَنْ يَكونَ الأَمْرُ كَذٰلِكَ . إِنَّني لا أَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ الَّتي كُنْتُ أَشْعُرُ بِها مِنْ قَبْلُ . »

اَلْقِسْمُ الثّالِثُ
دُكْتور سِيوارْد

اَلْفَصْلُ التّاسِعُ

جَلَسَ الدُّكْتور سِيوارْد يَكْتُبُ تَقارِيرَهُ الأُسْبوعِيَّةَ عَنْ دارِ المَجانينِ الَّتي يَتَوَلَّى الإِشْرافَ عَلَيْها . وَكانَ مِنْ بَيْنِ الحالاتِ الَّتي يُعالِجُها حالَةُ رِينْفِيلْد الَّتي كانَتْ مَحَطَّ اهْتِمامِهِ ، فَهٰذا رَجُلٌ مَوْفورُ القُوَّةِ ، في أَواسِطِ العُمْرِ ، يَقْضي كُلَّ وَقْتِهِ في القَبْضِ عَلى الذُّبابِ وَالإِبْقاءِ عَلَيْهِ حَيًّا في وِعاءٍ زُجاجِيٍّ . مِثْلُ هٰذا الصَّنيعِ — عَلى الأَقَلِّ — لَمْ يَكُنْ يُسَبِّبُ أَيَّ ضَرَرٍ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ — كَذٰلِكَ — يُمْسِكُ العَناكِبَ وَيُقَدِّمُ لَها الذُّبابَ طَعامًا . وَتَصَوَّرْ



الأمرُ فأصبحَ يُمسِكُ زوجًا مِنَ الطُّيورِ الصَّغيرةِ ويُقدِّمُ لها العناكِبَ غِذاءً . وسألَ الرَّجُلُ عمّ إذا كانَ مِنَ المُمكِنِ أنْ يقتنيَ قِطًّا صغيرًا ، فرفضَ الدُّكتور سيوارد طلبَهُ . وفي اليومِ التّالي أبلغَ مُمرِّضُ رينفيلد أنَّ الطّائرَيْنِ اختفيا ، وأنَّ هُناكَ دمًا وريشًا في أحدِ أركانِ الحُجرةِ ولِذلِكَ حمدَ الدُّكتور سيوارد اللهَ لأنَّهُ لَمْ يُعطِ رينفيلد قِطًّا .

وكانَ مِنَ الواضِحِ أنَّ رينفيلد يتَّبِعُ خُطَّةً ، وأنَّ هذِهِ الخُطَّةَ كانَتْ ــ بمنطِقِها الخُصوصيِّ ــ معقولةً . فقدْ كانَ يتوهَّمُ أنَّهُ ــ إذْ يلتهِمُ الطّائرَيْنِ ــ فهُوَ لا يقضي على حياتِهِما فحسْبُ ، وإنَّما يقضي في نفسِ الوقتِ على حياةِ العناكِبِ والذُّبابِ ، وكُلُّ ذلِكَ يبعثُ فيهِ شعورًا بالسَّطوةِ والقُوَّةِ . ولكِنَّ المسألةَ هِيَ : ما الَّذي يُمكِنُ أنْ يؤدّيَ إليهِ كُلُّ هذا ؟

إنَّ قتلَ العناكِبِ والذُّبابِ ليسَ أمرًا ذا شأنٍ ، ولكِنْ لِنفرِضْ أنَّهُ بدأ يُفكِّرُ في القضاءِ على حياةِ كائناتٍ أعلى مِنْ هذِهِ ؟ إنَّ مِثلَ هذِهِ الفِكرةِ ــ إذا تسلَّطتْ عليهِ ــ قدْ تجعلُ مِنهُ قاتِلًا . ولَمْ تكُنْ هذِهِ هِيَ المُشكِلةَ الوحيدةَ في حالةِ رينفيلد . فمُنذُ بِضعةِ أيّامٍ بدأتْ تنتابُهُ حالةُ هِياجٍ بِدونِ سببٍ ملحوظٍ . وظلَّ يُردِّدُ قولَهُ : « إنَّ السَّيِّدَ قريبٌ » ، فهلْ كانَ هذا نوعًا مِنَ الهوَسِ الدِّينيِّ ياتُرى ؟ وإذا صحَّ ذلِكَ ، واقترنَ الأمرُ برغبتِهِ في القتلِ ، فإنَّ ذلِكَ يُشيرُ إلى حالةٍ خطيرةٍ .

أزاحَ الدُّكتور سيوارد السِّجِلَّ الَّذي يُدوِّنُ فيهِ مُلاحظاتِهِ بعيدًا ، وأراحَ رأسَهُ بينَ يديْهِ ، وكانَ اللَّيلُ قدِ انتصفَ ، وعلَتْهُ التَّعبُ والإعياءُ . كانَ يعلَمُ أنَّهُ يكِدُّ في عملِهِ كثيرًا ، ولكِنَّ هذا كانَ يُساعِدُهُ على التَّفكيرِ في لوسي .

وعِندما ذهبَ إلى فِراشِهِ أخيرًا أصابهُ أرقٌ . وكانَ لا يزالُ مُستيقِظًا حينما دخلَ الحارِسُ اللَّيليُّ حُجرتَهُ في السّاعةِ الثّانيةِ صباحًا ، وقالَ : « لقدْ أرسلَني إليكَ المُمرِّضُ المنوطُ بِهِ العملُ اللَّيلةَ لأُبلِغَكَ أنَّ رينفيلد قدْ هربَ . » فارتدى سيوارد ثيابَهُ على عجلٍ ، ونزلَ السُّلَّمَ وثبًا إلى حُجرةِ رينفيلد ، وكانَ المُمرِّضُ قدْ أيقظَ اثنيْنِ مِنْ زُملائِهِ ، ووقفَ الثّلاثةُ ينتظِرونَ توجيهاتِ الطَّبيبِ .

وقالَ المُمرِّضُ شارِحًا : « لقدْ حدثَ الأمرُ على هذِهِ الصّورةِ ياسيِّدي : كُنْتُ قدْ نظرْتُ مِنْ خِلالِ النّافذةِ الَّتي في بابِهِ مُنذُ خمسَ عشْرةَ دقيقةً ، وبدا لي أنَّهُ نائِمٌ ، ثُمَّ نظرْتُ ثانيةً مُنذُ لحظاتٍ فرأيتُهُ يتسلَّقُ إلى خارِجِ النّافذةِ . إنَّهُ قويٌّ جدًّا ياسيِّدي ، فقدْ ثنى قُضبانَ النّافذةِ بيديْهِ وفرَّ هارِبًا ، وأظُنُّ أنَّهُ اتَّجهَ نحوَ كارفاكس . »

قالَ الدُّكتور سيوارد : « اتبعوني ، فسوفَ نسلُكُ نفسَ الطَّريقِ الَّذي سلكَهُ مِنْ خِلالِ النّافذة . »

وبينما كانَ الطَّبيبُ يتسلَّقُ النّافذةَ كانَ يتعجَّبُ مِنْ قُوَّةِ الرَّجُلِ المخبولِ الَّذي استطاعَ أنْ يثنيَ القُضبانَ الحديديَّةَ الغليظةَ كأنَّما هِيَ أسلاكٌ . ما الَّذي جعلَهُ يفعلُ ذلِكَ ياتُرى ؟ إنَّهُ لَمْ يُحاوِلِ الهُروبَ قطُّ مِنْ قبلُ !

وحينما أصبحَ الرِّجالُ الخمسةُ في الخارِجِ جرَوْا نحوَ السّورِ المُرتفِعِ الَّذي يقِفُ حاجِزًا بينَ المُستشفى وأراضي كارفاكس المُشجَّرةِ الَّتي يغشيها الظَّلامُ ، وتساءلَ الطَّبيبُ : « إذا كانَ رينفيلد يُريدُ مُجرَّدَ الهُروبِ ، فلِماذا لَمْ ينطلِقْ نحوَ الطَّريقِ ؟ »

وكانَ في الجانِبِ الآخرِ مِنَ السّورِ ممرٌّ تكسوهُ الأعشابُ الطَّويلةُ . سلكوا ذلِكَ الممرَّ حتّى لاحَ أمامَهم في عتمةِ اللَّيلِ هيكلُ المنزِلِ والكنيسةُ . ولَمْ يصعُبْ عليهِمُ العثورُ على رينفيلد الَّذي يلبسُ جلبابَ النَّومِ الأبيضَ ، والَّذي لَمْ يكُنْ يُحاوِلُ أنْ يُخفيَ نفسَهُ ، وإنَّما كانَ مُتشبِّثًا بجسمِهِ ببابِ الكنيسةِ ، وذِراعاهُ ممدودتانِ إلى أعلى . وكانَ يقولُ : « سيِّدي ! إنَّ خادِمَكَ هُنا ، مُرْهُ بما ترى . »

فقالَ الطَّبيبُ : « تمامًا كما قدَّرْنا . إنَّهُ نوعٌ مِنَ الهوَسِ الدِّينيِّ ، ولقدْ جاءَ إلى هُنا لأنَّهُ يظُنُّ أنَّها أقربُ كنيسةٍ . »

ولابُدَّ أنَّ رينفيلد سمعَ صوتَهُ ، فقدِ التفتَ فجأةً وواجهَهُم وهُوَ يُزمجِرُ كما تُزمجِرُ الحيواناتُ الضّارِيةُ . أمّا الطَّبيبُ ورِجالُهُ فقدْ أحكموا الحلقةَ حولَهُ حتّى أصبحوا على مقرُبةٍ مِنهُ بحيثُ يستطيعونَ الإمساكَ بِهِ ، ولكِنَّهُ أخذَ يُقاتِلُ قِتالَ المُستميتِ . وكانَ الرِّجالُ

الخَمْسةُ أَشَدَّ قُوَّةً فحملوهُ وعدَوْا به وَهُو يَرْفُسُ ويُقاوِمُ . وكانَ هُنكَ خُفّاشٌ يَطيرُ حائِمًا بَيْنَ الأشجارِ وحارجَها ، وَبَدا كَأَنَّما تَحرُّكاتُ الخُفّاشِ تُريدُهُ اَسْتِثارةً وَصِياحًا ، حتّى إِنَّ كُلَّ مَنْ في المُسْتشفى اسْتَيْقظوا على صَيْحاتِهِ وَصرخاتِهِ .

وَفي صباحِ اليَوْمِ التّالي جاءَ زائِرٌ إلى الدُّكْتور سيوارْد ، ولَمْ يَكُنِ الطّبيبُ راغِبًا في اَسْتِقْبالِ أَيِّ زائِرٍ بَعْدَ ما حَدَثَ في اللَّيْلةِ الماضِيةِ . ولكِنَّهُ كانَ آرْثَر هولْمْوود وَهُو صديقٌ لابُدَّ أَنْ يراهُ . ولَمْ يَكُنِ الشّابُّ الدّرِعُ ـــ القَوامِ ، الأَنيقُ الثِّيابِ ، البَهِيُّ المَنْظرِ ـــ سعيدًا كَما كانَ يَبْدو عادةً ، وإنَّما كانَ قَلِقًا بِسَبَبِ تَدهْوُرِ صِحّةِ لوسي .

قالَ آرْثَر : « لَقَدْ كانَتْ تَبْدو في أَحْسَنِ حالٍ حِينَما عادَتْ مِنْ هُويتْبي ياجاك ، مَعَ أَنَّ مينا مُوراي قالَتْ إنَّها كانَتْ مَريضةً جِدًّا . »

قالَ الطّبيبُ : « لَقَدْ كَتَبتْ مينا إليَّ بذلك ، وكانَ يَبْدو مِنْ رِسالَتِها أَنَّها شديدةُ القَلقِ عَلَيْها . »

قالَ آرْثَر : « حَسَنًا . لَقَدْ ظَنَنْتُ في البِدايةِ أنَّ مينا اَخْترعَتْ قِصّةَ مَرَضِها . ولكِنْ ما إنِ اَنْقَضَتْ أيّامٌ قليلةٌ بَعْدَ عَوْدَتِها حتّى تَغيَّرَتْ ، وأَدْرَكْتُ تَمامًا ماذا كانَتْ مينا تَقْصِدُ . إنَّها الآنَ في غايةِ الضَّعْفِ حتّى إنَّها لا تَكادُ تَتحرَّكُ هُنا وهُناك إلّا بِصُعوبةٍ ، ثُمَّ إنَّها تَزْدادُ سُوءًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ . إنّي لابُدَّ أنْ أَعودَ إلى لَنْدن اليَوْمَ ، وَلكِنّي أُريدُكَ أَنْ تَذْهَبَ لتناوُلِ الغَداءِ مَعَ آلِ وسْتِنْرا . ولاحِظْ أنَّ لوسي لَنْ تَتحدَّثَ عَنْ مَرَضِها على مَسْمَعٍ مِنْ أُمِّها ، وَلكِنْ يُمْكِنُكَ بَعْدَ ذلِكَ أَنْ تَجِدَ فُرْصةً لِرُؤْيَتِها على اَنْفِرادٍ . »

وَفي وَقْتٍ مُتأخِّرٍ مِنْ نَفْسِ الصَّباحِ اَسْتَقَلَّ الدُّكْتور سيوارْد عَرَبَتَهُ إلى هيبيسْتِدون حَيْثُ تُقيمُ أُسْرةُ وِسْتِنْرا . ولَمْ يَكُنْ قَدْ رَأى لوسي مُنْذُ أَسابيعَ ، وَلَمْ يَكُنْ مُرْتاحًا إلى رُؤْيَتِها الآنَ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَنْسَ وَعْدَهُ أَنْ يَكونَ لَها صَديقًا .

وحِينَما قابَلَها لاحَظَ أَنَّها شاحِبةٌ وَلكِنْ مُبْتسِمةٌ ، عَلى الأَقَلِّ ، في أثْناءِ الغَداءِ حِينَما كانَتْ أُمُّها مَعَهُما . وَلكِنْ بَعْدَما ذَهَبَتِ السَّيِّدةُ وِسْتِنْرا تَسْتَريحُ تَخلَّتْ لوسي عَنِ

التَّظاهُرِ ، وَقالَتْ : « آهٍ ياجاك ! أنا لَسْتُ عَلى ما يُرامُ ، وَكَمْ أَوَدُّ أَنْ أَكونَ عَلى ما يُرامُ . »

سأَلَ الطَّبيبُ : « تَوَدّينَ أَنْ تَكوني عَلى ما يُرامُ مِنْ أَجْلِ آرْثَر ؟ »

فتبسَّمَتْ لوسي في رِقّةٍ وقالَتْ : « نَعَمْ ياجاك مِنْ أَجْلِ آرْثَر . »

فتكلَّفَ سيوارْد ابْتِسامةً وَسأَلَها : « لوسي ، مِمَّ تَشْكينَ ؟ »

وأخبرَتْهُ أنَّها تَشْكو مِنْ نَوْمٍ ثَقيلٍ أَشْبَهَ بالمَوْتِ . مِنْ أَحْلامٍ مُزْعِجةٍ لا تَسْتطيعُ أَنْ [illegible] حِينَما تَسْتَيْقِظُ مِنْ إِرْهاقٍ وَشُحوبٍ مِنْ ضيقٍ في التَّنفُّسِ ، وإحْساسٍ [illegible] بالبُرودةِ .

[illegible] فحصَها سيوارْد لَمْ يَجِدْ سَبَبًا لِهذِهِ الأَعْراضِ ، فيما عَدا عَضَّتَيْ حَشَرةٍ في عُنُقِها [illegible] كَريهتَي المَنْظرِ ، كَما أنَّ ضَغْطَ الدَّمِ كانَ مُنْخَفِضًا .

وسأَلَ الطّبيبُ نَفْسَهُ : « أَتَكونُ قَدْ فَقَدَتْ كَمِّيّةً مِنَ الدَّمِ ؟ »

[illegible] أَمْرٌ بَعيدُ الاحْتِمالِ . كُلُّ ما يُمْكِنُ عَمَلُهُ هُوَ أَنْ تُؤْخَذَ عَيِّنةٌ مِنْ دَمِها وتُرْسَلَ إلى [illegible] لِفَحْصِهِ . وَجاءَ التَّقْريرُ في اليَوْمِ التّالي مُتضمِّنًا أَنَّهُ لَيْسَ في دَمِها شَيْءٌ غَيْرُ طَبيعيٍّ . وتَعجَّبَ سيوارْد : أَيُمْكِنُ أنْ يَكونَ السَّبَبُ نَفْسِيًّا ؟ أَيُمْكِنُ أنْ تَمْرَضَ بِسَبَبِ أنَّها تَتوهَّمُ أَنَّها مَريضةٌ ؟

وَمَعَ ذلِكَ فَقَدْ كانَ يَشُكُّ في هذا الاحْتِمالِ . كانَ يَعْتقِدُ أنَّ هُناكَ أَمْرًا غَيْرَ عادِيٍّ في [illegible] ، وَلَيْسَ هُناكَ إلّا رَجُلٌ واحِدٌ يَسْتطيعُ مُعالَجةَ الحالاتِ غَيْرِ العادِيّةِ . إنَّهُ أُسْتاذُهُ [illegible] وَصَديقُهُ فان هيلْسينغ في أَمْسْتِرْدام . عَلى أَيِّ حالٍ ، فإنَّ الأَمْرَ يَبْدو خَطيرًا ، وَمِنْ [illegible] لوسي لابُدَّ أَنْ يَبْذُلَ كُلَّ مُحاوَلةٍ مُمْكِنةٍ . نَعَمْ سَوْفَ يَسْتَدْعي فان هيلْسينغ

الفصل العاشر

وَصَلَ البروفيسور أبراهام فان هيلسينغ إلى هيلينغدون بعد ثلاثة أيام، وأقام فيها فترة كافية لفحص لوسي التي كان يراها بمفرده، ثم عاد بعد ذلك مباشرة إلى أمستردام. ولم يقل البروفيسور كثيرًا بعد فحصها، ولكن سيوارد أحس أنه لم يضيع وقت الرحلة العظيم هباء، فقد أثارت الحالة اهتمامه، وطلب أن يوافى بتقارير يومية عن حالة لوسي.

وفي اليوم التالي بدا أن لوسي في تحسن. لقد كان فان هيلسينغ رفيقًا معها، وقد وضعت فيه ثقتها. والواقع أن الرجل كان محببًا إلى الشابات الصغيرات. وبعد ذلك بيوم استطاع الدكتور سيوارد أن يبعث إليه بتقرير يتضمن مزيدًا من التحسن في حالتها، كما لو كانت السحابة القاتمة المخيمة عليها قد بدأت تنقشع وتزول.

ولكن إذا كانت لوسي قد بدأت تتحسن، فإن رينفيلد لم يكن كذلك. فمنذ حادث هروبه انخفضت معنوياته إلى حد كبير. فقد كان ينزوي في ركن كتمثال بلا حياة، ولم يكن يتحدث إلا قليلا. وقد حاول الدكتور سيوارد أن يحضره أحيانا لكي يتكلم، ولكن كان كل ما يقوله هو: « لقد تركني! ليس هناك أمل لي! لقد تركني. »

وفي اليوم الثالث لزيارة هيلسينغ عاود المرض لوسي واشتد بها حتى إن سيوارد بعث ببرقية إليه يطلب فيها أن يأتي على الفور. واستجاب البروفيسور ووصل في المساء التالي حيث قاده سيوارد إلى حجرة لوسي بالطابق العلوي. وكانت تبدو في حالة سيئة لم تعهد من قبل. كانت شديدة الشحوب، حتى إن شفتيها وحلقها لم يعد بها لون. كانت تتنفس بطريقة تثير الأسى والألم في نفس من يراها أو يسمعها. بل إنها بدت وكأنها تكاد تفقد القدرة على الكلام. وقد فحصها فان هيلسينغ وهو صامت، ثم خرج من الحجرة يتبعه سيوارد. وكان يوشك أن يبدأ حديثه حينما طرق أسماعهما صوت مضطرب، وإذا بآرثر هولموود يصعد السلم وثبًا، وبادر يقول: « لقد عجلت بالحضور قدر ما استطعت، ومبلغ علمي أنها أسوأ حالا! »

فأجاب فان هيلسينغ: « إنها تواجه أعظم خطر أيها الشاب. »

فصاح آرثر: « خطر؟ ولكن ماذا بوسعنا أن نفعله؟ إنني على استعداد لتقديم آخر قطرة من دمي لإنقاذها. »

فقال البروفيسور: « أيها السيد العزيز، أنا لا أسألك أن تقدم مثل هذا القدر. ليس آخر قطرة من دمك، ولكن ثق أن الدم هو الشيء الذي تحتاج إليه فعلا. إن ما في جسدها من دم لا يكاد يكفي لكي يظل قلبها نابضًا. إن دم شاب معافى مثلك هو الذي تحتاج إليه. أرجوك ياسيد هولموود — وأظن أنك السيد هولموود — أن تخلع سترتك فورًا. لابد أن تقوم مباشرة بعملية نقل دم يادكتور سيوارد. »

خلع آرثر سترته دون أن يفوه بكلمة، وبدأ يثني كم قميصه، وكانت لوسي المسكينة قد بلغ منها المرض حدًا لم تعد تشعر معه بالفتحة التي أحدثها الطبيبان في ذراعها لنقل الدم إليها. ولكن بعد مضي عشر دقائق بدأ الدم يتدفق من ذراع آرثر إليها فيعيد اللون إلى وجهها الشاحب، وبدأ تنفسها ينتظم، وقال البروفيسور: « والآن، سنترك الآنسة لوسي تنام، وسوف أعود غدا لأراها. ولكن أمامنا شيء آخر لابد أن نفعله قبل أن ننصرف. »

ونزل البروفيسور إلى الطابق السفلي ثم عاد ومعه صندوق، فوضعه فوق سرير لوسي وقال لها مبتسمًا: « هيا افتحيه. »

ففتحت لوسي الصندوق، وقالت وهي تمد يدها لتخرج منه بعض الأزهار الصغيرة البيضاء: « أهذه لي؟ آه يادكتور فان هيلسينغ! يالك من عطوف! »

فرد الطبيب: « نعم ياعزيزتي، إنها لك. ولكنها من أجل مرضك وليست من أجل الاستمتاع بها. شميها. »

فرفعت لوسي الأزهار إلى أنفها، ولم تكد تشمها حتى صاحت: « أف! إنها أزهار الثوم! إنها من الثوم العادي! هي دعابة يابروفيسور؟ »

وأخذت سيوارد الدهشة حين رأى أن فان هيلسنغ لم يضحك، بل على العكس بدا وجهه حادًا رزينًا بصورة لم يعهدها من قبل، ووضع يده على يد لوسي وقال: «إنها ليست دعابة. هناك سبب وراء كل ما أفعله، وأنا أحذرك. لا تعصي لي أمرًا أطلبه منك وإلا فإنك سوف تعرضين نفسك لخطر الموت. نعم! بل لما هو أسوأ.»

ولما لاحظ أنه قد أفزعها بكلامه استمر يقول بصوت أرق: «لا تخافي! إنما أحاول أن أساعدك. إن لهذه الأزهار العادية قوة كبرى.» وكان الذي فعله البروفيسور بعد ذلك مما لا يوجد في أي كتاب من كتب الطب التي قرأها سيوارد. فقد بدأ بإغلاق جميع النوافذ ثم أخذ بعد ذلك حفنة من الأزهار ومسح بها النوافذ والباب والمدفأة مسحًا شاملًا.

قال سيوارد: «والآن يا بروفيسور، أنا أعلم أنك لا تفعل شيئًا على الإطلاق إلا لسبب معين، ولعل من دواعي سروري أنه ليس معنا الآن طبيب آخر ليرى ما تفعله. ولو أن معنا طبيبًا آخر لقال إنك اعتزلت مهنة الطب وأصبحت ساحرًا. إنك تبدو كما لو كنت تحاول أن تطرد روحًا شريرة.»

فأجاب فان هيلسنغ في هدوء: «لعلي أفعل ذلك.»

قال ذلك وهو يشكل من بقية الأزهار عقدًا، ثم طوق به عنق لوسي قائلًا: «مهما يكن ما تفعلينه الليلة فلا تفتحي النوافذ أو الباب ولا تنزعي عقد الأزهار من حول عنقك. إنها مسألة حياة أو موت!»

وفي اليوم التالي وصل فان هيلسنغ إلى المستشفى في الساعة الثامنة لكي يصحب الدكتور سيوارد إلى منزل وستنرا، حيث استقبلتهما السيدة وستنرا. قالت السيدة: «آمل أن تجد لوسي أحسن حالًا. لقد تطلعت الآن إلى حجرتها فوجدت أنها نائمة نومًا هادئًا، ولذلك لم أشأ أن أوقظها.»

فقال البروفيسور وقد بدا عليه السرور: «إذًا فعلاجي يسير سيرًا مرضيًا.»



فردّتِ السّيّدةُ وستِرا وهي تبتسمُ : « لعلّهُ علاجي أنا . لقدْ ذهبتُ إلى حُجرتِها في اللّيلةِ الماضيةِ قبلَ أنْ أذهبَ للنّومِ فوجدتُها تنامُ في هُدوءٍ . ولكنْ لمْ يكنْ هناكَ هواءٌ نقيٌّ في الحُجرةِ ، وكانتْ تنتشرُ فيها رائحةٌ نفّاذةٌ منبعثةٌ منْ بعضِ أزهارٍ حولَ عُنقِها ، ففكّرتُ أنَّ ذلكَ سوفَ يضرُّ بالطّفلةِ المسكينةِ وهي في هذهِ الحالِ منَ الضّعفِ ، لذلكَ استبعدتُ الأزهارَ وفتحتُ النّافذةَ قليلًا . أعتقدُ أنّكَ سوفَ تُسرُّ حينَ تراها . أنا واثقةٌ . »

وما إنْ سمعَ فان هيلسينغ قولَها حتّى اكتسى وجهُهُ بشحوبٍ كشحوبِ الموتى ، ولمْ يقلْ شيئًا ، ولكنَّ سيوارد لاحظَ أنَّ الرّجلَ يحاولُ أنْ يُخفيَ مشاعرَهُ . كانَ البروفيسور على علمٍ بالحالِ الصّحّيّةِ للسّيّدةِ وستِرا ، ويعلمُ الخطرَ الّذي يتهدّدُها إذا ووجِهتْ بما يصدمُها ولكنْ ما إنْ غادرتِ الحُجرةَ حتّى صعدَ السُّلّمَ وثْبًا إلى حُجرةِ لوسي . وبينما كانَ دكتور سيوارد يُزيحُ السّتائرَ كانَ فان هيلسينغ ينحني فوقَ لوسي الّتي كانتْ لا تزالُ نائمةً . قالَ البروفيسور وهو ينظرُ إلى وجهِها الشّاحبِ :

« هذا ما كنتُ أخشاهُ . ولكنّها ، على الأقلّ ، لمْ تفقدِ الكثيرَ في هذهِ المرّةِ . جاك ، إنّي مضطرٌّ إلى العودةِ إلى أمستردام اليومَ . وعليكَ أنْ تنامَ في هذا المنزلِ كلَّ ليلةٍ . وسوفَ أبعثُ بصناديقَ منْ أزهارِ الثّومِ الطّازجةِ كلَّ يومٍ ، فافعلْ كما فعلتُ أنا في اللّيلةِ الماضيةِ تمامًا . سوفَ أعودُ بعدَ أربعةِ أيّامٍ أو قبلَ ذلكَ إذا دعتِ الحالُ ، فقُمْ على حراستِها بعنايةٍ . »

فسألَ سيوارد : « على حراستِها ؟ أحرسُها منْ ماذا ؟ أو ممّنْ ؟ »

قالَ ذلكَ وهو يشعرُ بشيءٍ منَ الخوفِ وعدمِ الاطمئنانِ ، فقالَ البروفيسور : « الأحسنُ يا جاك أنْ تقولَ ممّنْ لقدْ كنتَ دائمًا طالبًا حاضرَ البديهةِ ولكنَّ أمامَكَ الكثيرَ ممّا تتعلّمُهُ »

قالَ هذا ثمَّ ذهبَ.

الفصلُ الحادي عشرَ

كانتِ الأيّامُ القليلةُ التّاليةُ قاسيةً بالنّسبةِ للدّكتور جاك سيوارد . كانَ يقضي وقتَهُ بينَ المُستشفى نهارًا وهيلينغدون ليلًا ، ولقدْ كانَ منَ الممكنِ أنْ تكونَ المهمّةُ أيسرَ لو أنّه كانَ يعلمُ ممَّ يحرسُ لوسي ، ولكنّ فان هيلسينغ لمْ يذكرْ لهُ ما يوضّحُ الأمرَ .

وفي صبيحةِ كلِّ يومٍ كانَ صندوقٌ منْ زهورِ الثّومِ الطّازجةِ يصلُ منْ هولندة في بريدٍ خاصٍّ ، وكانَ سيوارد يفعلُ بها مثلما فعلَ البروفيسور في أوّلِ ليلةٍ تمامًا . ولمْ يكنْ ميّالًا إلى هذهِ العمليّةِ ؛ إذْ كانتْ تبدو غيرَ قائمةٍ على أساسٍ علميٍّ . وكانَ الدّكتور سيوارد منَ الأطبّاءِ الّذين يحترمونَ العلمَ ، ولكنّ الظّواهرَ كانتْ تدلُّ على أنَّ العمليّةَ مُجديةٌ ، فقدْ أخذَ وجهُ لوسي يستردُّ لونَهُ الطّبيعيَّ يومًا بعدَ يومٍ ، بلْ إنَّ الجُرحينِ الصّغيرينِ اللّذينِ في عُنقِها أخذا يلتئمانِ ولكنّ اللّيالي كانتْ مرهقةً لهُ ، فقدِ استيقظَ عدّةَ مرّاتٍ على أصواتٍ غريبةٍ كانَ يبدو أنّها آتيةٌ منْ خارجِ نافذةِ لوسي . وفي أوّلِ الأمرِ كانَ يظنُّ أنّهُ غصنُ شجرةٍ يحتكُّ بالنّافذةِ بسببِ الرّيحِ ، ولكنّهُ في اللّيلةِ التّاليةِ تأكّدَ أنّه لا توجدُ شجرةٌ . وكانَ الصّوتُ يبدو في بعضِ اللّيالي أشبهَ برفرفةِ أجنحةٍ

وكذلكَ كانَ رينفيلد سببًا في بعضِ المتاعبِ ، ففي أحدِ الأيّامِ جاءَ في تقريرِ دكتور هيسي مساعدِ الدّكتور سيوارد أنَّ رينفيلد قدْ هاجمَ رجلينِ على حينِ غفلةٍ . كانَ يسيرُ في الحديقةِ معَ الممرّضِ المكلّفِ برعايتِهِ حينما لمحَ هذينِ الرّجلينِ يسوقانِ عربةً في الطّريقِ القادمِ منْ كارفاكس فانقضّ عليهِما ، وتدخّلَ الممرّضُ بسرعةٍ وجذبَ رينفيلد بعيدًا عنِ الرّجلينِ . ورأى الدّكتور هيسي أنّهُ قدْ يكونُ منَ الحكمةِ أنْ يمنحَ الرّجلينِ بعضَ النّقودِ ، وأنْ يحتفظَ باسميهِما منْ قبيلِ الاحتياطِ فيما لوْ حدثتْ فيما بعدُ أيّةُ مشكلةٍ .

وفي وقتٍ مبكّرٍ منْ إحدى اللّيالي كانَ سيوارد يجلسُ في مكتبِهِ يلقي نظرةً على صحيفةِ المساءِ قبلَ أنْ يذهبَ إلى هيلينغدون كعادتِهِ . كانَ يقرأُ في الصّحيفةِ قصّةَ ذئبٍ كانَ قدْ هربَ توًّا منْ حديقةِ الحيوانِ بلندن ، وكانَ النّعاسُ يكادُ يغلبُهُ بسببِ الإرهاقِ الّذي حلَّ بهِ منْ كتابةِ التّقاريرِ ، ولذلكَ بدا كأنّما يرى في المنامِ الذّئبَ يقتحمُ الحُجرةَ وفجأةً

فُتِح الباب ، وَحَدَث اقْتِحامٌ فِعْلًا — في الْحَقيقةِ لا في المَنامِ — لَمْ يَكُنِ المُقْتَحِمُ ذِئْبًا ، وَإِنَّما كان رِنْفيلْد وَهُوَ يَبْدو في صُورَةِ الذِّئْبِ ، وَفي يَدِهِ شَيْءٌ يَلْمَعُ . وَصاحَ سيوارْد : « آهِ يا إلٰهي ! »

لَقَدْ كانَ رِنْفيلْد يُمْسِكُ في يَدِهِ بِسِكِّينِ مَطْبَخٍ . وحاوَلَ سيوارْد أَنْ يَجْعَلَ المِنْضَدَةَ حائِلًا بَيْنَهُما ، وَلٰكِنَّ رِنْفيلْد كان أَسْرَعَ فَوَجَّهَ ضَرْبَةً إلى ذِراعِهِ اليُسْرى ، فَبادَرَ سيوارْد وَالْتَقَطَ بِيُمْناهُ الحَجَرَ الثَّقيلَ ، الَّذي يُثَبِّتُ بِهِ الأَوْراقَ ، مِنْ فَوْقِ المَكْتَبِ وبادَرَهُ بِضَرْبَةٍ بِهِ طَرَحَتْهُ أَرْضًا ، فَتَمَدَّدَ الرَّجُلُ وَوَجْهُهُ إلى الأَرْضِ بَعْدَ أَنْ طارَ السِّكِّينُ مِنْ يَدِه ، وَهٰكَذا ذَهَبَتْ لَحْظَةُ الخَطَرِ . وَبَيْنَما كانَ سيوارْد واقِفًا في ذُهُولٍ مِمّا حَدَث ، قابِضًا ذِراعَهُ المَجْروحَةَ ، سَمِعَ وَقْعَ أَقْدامِ رِجالِهِ وَهُمْ يَجْرُونَ في الدِّهْليزِ . كانَ يَشْعُرُ بِالأَلَمِ ، والدِّماءُ تَنْزِفُ مِنْ جُرْحِهِ عَلى الأَرْضِ حَيْثُ يَرْقُدُ رِنْفيلْد .

وَحينَما دَخَلَ الحُرّاسُ الحُجْرَةَ رَفَعَ رِنْفيلْد رَأْسَهُ فَكَشَفَ فَمَهُ المُلَطَّخَ بِالدَّمِ ، إذْ كانَ يَشْرَبُ — وَهُوَ مُلْقًى عَلى الأَرْضِ — مِنْ دِماءِ الطَّبيبِ الَّتي كانَتْ تَقْطُرُ فَوْقَ أَرْضيَّةِ الحُجْرَةِ . وَبَيْنَما كانُوا يَقودُونَهُ بَعيدًا كانَ يَصْرُخُ قائِلًا : « الدَّمُ هُوَ الحَياةُ . »

وَغَشِيَ سيوارْد إحْساسٌ بِالغَثَيانِ ، وَامْتَدَّتِ الأَيْدي إلَيْهِ لِتَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّقُوطِ ، ثُمَّ غابَ عَنِ الوَعْيِ فَلَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا .

حينَما تَنَبَّهَ سيوارْد كانَ يَجْلِسُ في سَريرِهِ وَهُوَ يَشْعُرُ بِالضَّعْفِ وَالوَهْنِ . وَلَعَلَّهُ فَقَدَ مِنَ الدِّماءِ أَكْثَرَ مِمّا كانَ يَعْتَقِدُ ، وَلَمّا نَظَرَ في ساعَتِهِ وَجَدَ أَنَّها العاشِرَةُ ، وَهُوَ الوَقْتُ الَّذي كانَ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ فيهِ في هيلينْغدون ، وَلٰكِنْ هَلْ عافِيَتُهُ تَسْمَحُ لَهُ بِالذَّهابِ ؟ وَدَخَلَ الدُّكْتور هيِبِسي الحُجْرَةَ وَقالَ :

« هيلينْغدون ؟ مُسْتَحيلٌ يا عَزيزي سيوارْد . إنَّهُ واجِبي الَّذي لا مِراءَ فيهِ كَطَبيبٍ — أَنْ أُخْبِرَكَ بِضَرورَةِ البَقاءِ في الفِراشِ . »

وَأَخيرًا اتُّفِقَ أَنْ يَذْهَبَ الدُّكْتور هيِبِسي بِنَفْسِهِ إلى هيلينْغدون ، قَبْلَ أَنْ يَنامَ ، لِيَزورَ مَنْزِلَ وِسْتِنْرا

كانَ لابُدَّ أَنْ يَقْضِيَ شَخْصٌ ما اللَّيْلَ هُناكَ . ولٰكِنَّ سيوارْد لَمْ يَكُنْ يُريدُ أَنْ يَعْرِفَ هيِبِسي الكَثيرَ عَنْ حالَةِ لُوسي ، إذْ إنَّ البروفيسور كانَ قَدْ أَعْطى تَعْليماتِهِ حينَ قالَ : « الَّذي حَدَثَ في هيلينْغدون يَجِبُ أَنْ يَبْقى سِرًّا لا يُذاعُ . » وَفَوْقَ هٰذا ، فَإِنَّ سيوارْد لَمْ يَشَأْ أَنْ يَعْرِفَ الأَطِبّاءُ الآخَرونَ شَيْئًا عَنْ هٰذا « السِّحْرِ » الَّذي يُمارَسُ عَنْ طَريقِ « زُهورِ الثُّومِ » . وَلِذٰلِكَ ، وَرَغْبَةً في التَّسَتُّرِ طَلَبَ الدُّكْتور هيِبِسي أَنْ يُخْبِرَ لُوسي بِأَنْ تَقومَ بِعَمَلِ الإِجْراءاتِ المَعْهودَةِ ، عَلى أَمَلِ أَنْ تَفْهَمَ هِيَ ما يُريدُ .

نامَ سيوارْد في هٰذِهِ اللَّيْلَةِ نَوْمًا مُريحًا بِذِراعِهِ المَجْروحَةِ ، وَحينَما أَدْرَكَهُ النُّعاسُ أَخيرًا لَمْ يَهْنَأْ بِالرّاحَةِ إلّا قَليلًا ، إذْ إنَّ بَرْقيَّةً وَصَلَتْ في ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ . وَقالَ الصَّبيُّ الَّذي حَمَلَها إنَّ البَرْقيَّةَ كانَ يَنْبَغي أَنْ تُسَلَّمَ في مَساءِ اليَوْمِ السّابِقِ لَوْلا أَنَّها أُرْسِلَتْ خَطَأً إلى قَرْيَةٍ أُخْرى تَحْمِلُ نَفْسَ الاسْمِ . وَجاءَ في البَرْقيَّةِ :

« احْرِصْ عَلى وُجودِكَ في هيلينْغدون اللَّيْلَةَ . إنَّ الأَمْرَ في غايَةِ الأَهَمِّيَّةِ . سَوْفَ أَصِلُ مُبَكِّرًا في صَباحِ التّاسِعَ عَشَرَ . »

فان هِلْسِنْغ

وَصاحَ سيوارْد : « يا لِلسَّماءِ ! إنَّهُ يَقْصِدُ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ . تُرى ماذا كانَ فان هِلْسِنْغ يَعْني ؟ » ولَمْ يَنْتَظِرْ لِتَناوُلِ الإِفْطارِ ، وَإِنَّما اسْتَقَلَّ العَرَبَةَ مُباشَرَةً إلى هيلينْغدون . وكانَ الوَقْتُ لا يَزالُ مُبَكِّرًا ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُوقِظَ لُوسي أَوْ والِدَتَها ، وَلِذٰلِكَ دَقَّ الجَرَسَ بِرِفْقٍ أَمَلًا في أَنْ إحْدى الخادِماتِ تَسْمَعُهُ فَتَفْتَحَ لَهُ البابَ ، وَلٰكِنْ لَمْ تَكُنْ هُناكَ اسْتِجابَةٌ ، فَدَقَّ الجَرَسَ مَرَّةً ثانيَةً دُونَ جَدْوى . فَدَسَّ أُذُنَهُ في صُنْدوقِ الخِطاباتِ لَعَلَّهُ يَسْمَعُ أَوْ يَرى شَيْئًا ، ولٰكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ كانَ في صَمْتِ القُبورِ . فَأَحَسَّ في قَرارَةِ نَفْسِهِ أَنَّ أَمْرًا سَيِّئًا قَدْ حَدَثَ ، وَأَخَذَ يَدورُ حَوْلَ المَنْزِلِ لَعَلَّهُ يَجِدُ نافِذَةً مَفْتوحَةً . وَلٰكِنَّ تَعْليماتِ فان هِلْسِنْغ كانَتْ تُنَفَّذُ بِدِقَّةٍ ، وَكُلُّ النَّوافِذِ كانَتْ مُوصَدَةً بِعِنايَةٍ وَإِحْكامٍ . وَمازالَ حَتّى وَصَلَ إلى حُجْرَةِ السَّيِّدَةِ وِسْتِنْرا الَّتي اخْتيرَتْ لِتَكونَ في الطّابِقِ الأَرْضيِّ لِكَيْ تَتَجَنَّبَ صُعودَ السُّلَّمِ لِمَرَضِها . وَفوجِئَ بِأَنَّ نافِذَةَ الحُجْرَةِ مُحَطَّمَةٌ ، وَأَنَّ فَوْقَ زُجاجِها بَعْضَ قَطَراتٍ مِنْ

الدَّمِ ، وَأَنَّ هُناكَ آثارَ أَقْدامِ حَيَوانٍ في حَوْضِ الزُّهورِ الَّذي يَقَعُ تَحْتَ النّافِذَةِ ، وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكونَ آثارَ أَقْدامِ كَلْبٍ ، أَوْ لَعَلَّها — وَإِنْ بَدَتِ الْفِكْرَةُ سَخيفَةً — آثارَ أَقْدامِ ذِئْبٍ .

وَأَخَذَ سيوارْد يَتَطَلَّعُ فيما حَوْلَهُ . وَكانَ الْهُدوءُ يَسودُ الْمَنْزِلَ وَالْحَديقَةَ بِطَريقَةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ . وَانْحَنى لِكَيْ يَتَأَمَّلَ في آثارِ الْأَقْدامِ بِعِنايَةٍ أَكْثَرَ ، وَإِذا بِهِ يَسْمَعُ في نَفْسِ اللَّحْظَةِ صَوْتًا يَجيءُ مِنْ خَلْفِهِ ، فَهَبَّ واقِفًا ، مُتَأَهِّبًا لِلدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ ، فَلَمْ يَجِدْ أَمامَهُ إِلّا فان هيلْسينْغ ، فَقَصَّ عَلَيْهِ في عِباراتٍ مُوجَزَةٍ ما حَدَثَ بِشَأْنِ رينْفيلْد وَالْبَرْقِيَّةِ الَّتي تَلَقّاها .

قالَ فان هيلْسينْغ وَهُوَ يَضَعُ يَدَهُ خِلالَ النّافِذَةِ الْمُحَطَّمَةِ : « أَخْشى أَنْ نَكونَ قَدْ وَصَلْنا بَعْدَ فَواتِ الْأَوانِ . »

ثُمَّ فَتَحَ النّافِذَةَ ، وَتَسَلَّقَ كِلاهُما واحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ إِلى الدّاخِلِ . كانَتْ لوسي وَأُمُّها مُمَدَّدَتَيْنِ فَوْقَ السَّريرِ ، وَكانَتْ تَبْدو عَلى وَجْهِ السَّيِّدَةِ وِسْتِنْرا نَظْرَةُ رُعْبٍ رَهيبَةٍ لَمْ يَرَ سيوارْد مِثْلَها قَطُّ ، فَلَمّا جَسَّ يَدَها وَجَدَ أَنَّها مَيِّتَةٌ . وَكانَتْ تَقْبِضُ بِيَدِها الْأُخْرى بِقُوَّةٍ عَلى عِقْدٍ مِنَ الزُّهورِ . وَلابُدَّ أَنَّها — في لَحْظَةِ فَزَعٍ — اسْتَطاعَتْ أَنْ تَصِلَ إِلى ابْنَتِها ، وَأَنْ تَمُدَّ يَدَها فَتَنْتَزِعَ الزُّهورَ الَّتي كانَتْ حَوْلَ عُنُقِها .

كانَتْ لوسي تَرْقُدُ بِجِوارِها ، وَكانَ الْجُرْحانِ اللَّذانِ في عُنُقِها ، وَاللَّذانِ كانَ قَدْ بَدَآ يَلْتَئِمانِ ، مَفْتوحَيْنِ عَلى سَعَةٍ ، وَفيهِما مَظْهَرُ الشَّيْءِ الْمَنْهوشِ . وَأَمْسَكَ فان هيلْسينْغ يَدَها وَوَضَعَ أُذُنَهُ مُلاصِقَةً لِصَدْرِها ، وَمَضَتِ الثَّواني كَأَنَّها ساعاتٌ قَبْلَ أَنْ يَهْتِفَ قائِلًا : « لَمْ يَفُتِ الْأَوانُ بَعْدُ . أَسْرِعْ وَهاتِ بَعْضَ الْكُحولِ . »

وَهُرِعَ سيوارْد إِلى حُجْرَةِ الطَّعامِ ، فَرَأى فيها مَنْظَرًا أَزالَ الدَّهْشَةَ الَّتي كانَتْ تَمَلَّكَتْهُ حينَ دَقَّ الْجَرَسَ دونَ مُجيبٍ . رَأى الْخادِماتِ مُمَدَّداتٍ عَلى الْأَرْضِ ، فَانْحَنى فَوْقَهُنَّ لِيَشُمَّ رائِحَةَ أَنْفاسِهِنَّ ، فَاكْتَشَفَ أَنَّ مُخَدِّرًا قَدْ وُضِعَ في شَرابِهِنَّ فَجَعَلَهُنَّ يَسْتَغْرِقْنَ في النَّوْمِ . وَأَخَذَ سيوارْد زُجاجَةً وَعادَ إِلى حُجْرَةِ النَّوْمِ حَيْثُ أَخَذَ فان هيلْسينْغ يُدَلِّكُ بِالسّائِلِ

يَدَيْ لوسي وَذِراعَيْها وَوَجْهَها ، وَحينَئِذٍ أَخْبَرَهُ سيوارْد بِما حَدَثَ لِلْخادِماتِ ، فَقالَ لَهُ فان هيلْسينْغ .

« اذْهَبْ فَنَبِّهْهُنَّ ، فَنَحْنُ في حاجَةٍ إِلى ماءٍ ساخِنٍ ، إِذْ لابُدَّ أَنْ تَبْقى لوسي دافِئَةً ، ثُمَّ سَتَدْعو السَّيِّدَ هولْموود فَرُبَّما اسْتَطَعْنا أَنْ نُنْقِذَها . وَلٰكِنْ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ مُسْتَعِدًّا لِلْأَسْوَأِ . »

وَلَمّا كانَتْ لوسي في حالَةِ إِعْياءٍ شَديدٍ فَقَدْ رَأى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَتِها أَنْ يَنْقُلَ إِلَيْها دَمًا طازَجًا ، وَلِذٰلِكَ آثَرَ أَنْ يَتْرُكَها في نَوْمِها ، وَجَلَسَ سيوارْد يُراقِبُها . وَكانَ مِنَ الْغَريبِ أَنَّ هُزالَها جَعَلَ أَسْنانَها تَبْدو أَطْوَلَ وَأَحَدَّ مِمّا كانَتْ مِنْ قَبْلُ . وَلٰكِنْ حينَما فَتَحَتْ عَيْنَيْها أَخيرًا بَدَتِ الْفَتاةَ الشّابَّةَ الْبَديعَةَ الَّتي كانَ يَعْرِفُها وَيُحِبُّها .

كانَ آرْثَر شُجاعًا ، فَقَدْ جَلَسَ مَعَ لوسي طَوالَ الْوَقْتِ وَلَمْ تَكْشِفْ مَلامِحُ وَجْهِهِ عَمّا كانَ يَخْتَلِجُ في قَلْبِهِ مِنْ حُزْنٍ وَأَسًى . وَدَخَلَ فان هيلْسينْغ بَعْدَ ذٰلِكَ وَطَلَبَ مِنْهُ الذَّهابَ إِلى حُجْرَةِ الْجُلوسِ لِيُحاوِلَ أَنْ يَأْخُذَ قِسْطًا مِنَ النَّوْمِ ، عَلى حينِ بَقِيَ سيوارْد مَعَ لوسي .

وَفي حَوالَيِ السّاعَةِ السّادِسَةِ صَباحًا دَخَلَ فان هيلْسينْغ حَتّى يُتيحَ لَهُ فُرْصَةً لِلرّاحَةِ ، ثُمَّ حَلَّ الْمِنْديلَ الْحَريرِيَّ الَّذي كانَ قَدْ عَقَدَهُ حَوْلَ عُنُقِها وَهَتَفَ : « أُنْظُرْ . »

وَتَطَلَّعَ سيوارْد إِلَيْها فَتَمَلَّكَهُ شُعورٌ غَريبٌ بارِدٌ ، إِذْ رَأى أَنَّ الْجُرْحَيْنِ اللَّذَيْنِ كانا حَوْلَ عُنُقِها قَدِ اخْتَفَيا تَمامًا ، فَقالَ فان هيلْسينْغ في أَسًى : « إِنَّها تَموتُ الْآنَ . إِنَّها لَحَظاتٌ وَتُفارِقُ الْحَياةَ . اذْهَبْ فَأَيْقِظْ صَديقَها الشّابَّ حَتّى يَكونَ بِجِوارِها في هٰذِهِ اللَّحْظَةِ . »

وَأَخَذَ فان هيلْسينْغ — بِما يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ كِياسَةٍ وَتَقْديرٍ — يُسَرِّحُ شَعْرَها حَتّى أَصْبَحَ مُرْسَلًا حَوْلَ رَأْسِها في مَوْجاتٍ ذَهَبِيَّةٍ ، وَحينَما جاءَ آرْثَر فَتَحَتْ عَيْنَيْها وَقالَتْ في صَوْتٍ خافِتٍ : « آرْثَر ياحَبيبي ! »

فَانْحَنى آرْثَر لِيُقَبِّلَها . وَلٰكِنَّ فان هيلْسينْغ الَّذي كانَ يُراقِبُهُ عَنْ كَثَبٍ سارَعَ فَأَوْقَفَهُ قائِلًا : « لا ! لَيْسَ الْآنَ ! أَمْسِكْ بِيَدِها فَقَطْ . »

وَأَغمضتْ لُوسي عينيْها ، وبدا عليْها النُّعاسُ . ولاحظ سيوارْد لِلْمرّة الثّانية التّغيّرات الغريبةَ الّتي كانتْ قدْ طرأتْ عليْها في أثناءِ اللّيْل : تحلّلَ المشْدود ، وَالفم المفْتوح ، وَالأسْنانَ الطّويلةَ الحادّةَ .

ثُمَّ تكلّمتْ لُوسي ثانِيةً في صَوْتٍ ناعِسٍ رَقيقٍ : « أرْثر ، قبّلْني »

وَعِنْدَما انْحنى أرْثر عَلَيْها فتحتْ عَيْنَيْها ، وَعِنْدما رأى سيوارْد كَيْفَ أصْبحتْ عَيْناها أُصيبَ بِصَدْمةٍ فقدْ أصْبحتا جامِدتيْنِ مُتَحجّرتيْنِ . أمّا فان هيلْسينْغ فقدْ لاحظَ شيْئًا جعلهُ يُسارِعُ إلى آرْثر قبْلَ أنْ يُقبّلها فيجْذبهُ إلى الوراءِ بكُلِّ ما أوتيَ مِنْ قُوّةٍ وهُوَ يَهْتِفُ : « لا مِنْ أجْلِ حَياتِكَ ! مِنْ أجْلِ رُوحِكَ الحَيّةِ ! »

كانَ سيوارْد يُركّزُ عَيْنيْه على وَجْهِ لُوسي ، فشاهَدَ ظِلًّا مِنَ الغَضَبِ يَمُرُّ عَبْرَ وَجْهِها ، وَرأى أسْنانَها الحادّةَ تَنْطَبِقُ . وَلَمْ تَمْضِ إلّا هُنَيْهةٌ حَتّى عادَتْ إلى ما كانَتْ عَلَيْهِ : الفَتاةَ الشّاحِبةَ المَنْهوكَةَ المُشْرفةَ عَلى المَوْتِ . وَحاوَلتْ أنْ تَبْتَسِمَ ، وَلٰكِنّها لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ القُوّةَ لِتَبْتسِمَ . كانَ الأمْرُ كَما لَوْ أنَّ هُناكَ اثْنَتيْنِ مِنْ لُوسي تَعيشانِ في بَدَنٍ واحِدٍ .

وَقالَ فان هيلْسينْغ في صَوْتٍ رقيقٍ لِآرْثر : « تَعالَ يا بُنَيّ ، خُذْ يَدَها في يَدِكَ وَقَبِّلْها الآنَ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ في الشّفتيْنِ وَلْتكُنْ قُبْلةً واحِدةً . »

وَفعلَ أرْثر كَما قالَ ، وَما لَبِثتْ أجْفانُ لُوسي أنِ انْطَبقَتْ . وَصارَ تَنَفُّسُها ثَقيلًا ، حَتّى توَقّفتْ أنْفاسُها أخيرًا .

وَقالَ سيوارْد في صَوْتٍ مُتَهَدّجٍ : « لَقَدِ انْتَهى كُلُّ شَيْءٍ . »

فَرَدّ فان هيلْسينْغ : « لا ! كُنْتُ أتَمَنّى أنْ تَكونَ هٰذِهِ هِيَ النّهايَةَ ، وَلٰكِنّها — فَقَطْ — مُجَرّدُ بِدايَةٍ . »

الفَصْلُ الثّاني عَشَرَ

لَمْ يَكُنْ لِلُوسي وَأُمِّها أُسْرةٌ تَتَولّى شُؤونَ الجِنازةِ ، وَقَدْ وافَقَ مُحاميها عَنْ طيبِ خاطِرٍ عَلى أنْ يَقومَ الدُّكْتور سيوارْد بِهٰذِهِ المُهِمّةِ ، وَحُدِّدَ لَها اليَوْمُ التّالي . وَحَتّى حُلولِ مِيعادِ الجِنازةِ كانَتْ لُوسي تَرْقُدُ في حُجْرَتِها بَيْنَ طاقاتٍ كَثيرةٍ مِنَ الزُّهورِ البَيْضاءِ وَشُموعٍ بَيْضاءَ طَويلةٍ ، وَقَدْ عادَ إلَيْها بَعْدَ مَوْتِها كُلُّ ما كانَتْ تَتَمَتّعُ بِهِ مِنْ جَمالٍ . بَلْ إنّها كانَتْ أجْمَلَ بَعْدَ المَوْتِ ، وَبَدَلًا مِنْ أنْ يَذْوي جَسَدُها بِالمَوْتِ ، كانَ — كُلّما مَضَتِ السّاعاتُ — يَبْدو وَكَأنّهُ يَعودُ إلى الحَياةِ .



وَفِي هٰذا المَساءِ ، وَبَيْنَما كانَ سيوارْد يَقِفُ مع فان هِيلْسِينْغ أَمامَ الجُثَّةِ تَصِلُ إِلَيْهِما الرّائِحَة العَطِرَةُ الَّتي تَنْشُرُها الأَزْهارُ وَالشُّموعُ المُحْتَرِقَةُ ، قالَ سيوارْد : « أَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُصَدِّقَ أَنّي أَنْظُرُ إِلى جَسَدٍ مَيِّتٍ . »

فَرَدَّ فان هِيلْسِينْغ : « لَعَلَّ مِنَ الخَيْرِ أَنْ تُفَكِّرَ في الأَمْرِ هٰكَذا . »

وَتَرَكَ فان هِيلْسِينْغ الحُجْرَةَ ، ثُمَّ عادَ وَمَعَهُ صُنْدوقُ أَزْهارِ الثُّومِ الَّذي وَصَلَ ذٰلِكَ الصَّباحَ مِنْ هولَنْدَه كَالعادَةِ ، وَقالَ : « إِنَّ واجِبَنا نَحْوَها لَمْ يَنْتَهِ بِالمَوْتِ . »

وَصَلَ آرْثَر مُبَكِّرًا في صَباحِ يَوْمِ الجِنازَةِ ، وَكانَتْ روحُهُ المَعْنَوِيَّةُ في غايَةِ السُّوءِ ، وَكانَ في أَشَدِّ الحاجَةِ لِكُلِّ عَوْنٍ يُمْكِنُ أَنْ يُقَدِّمَهُ أَصْدِقاؤُهُ . دَخَلَ مَعَهُمْ لِكَيْ يَرى لوسي ، وَأَحْدَثَتْهُ الدَّهْشَةُ لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ مِنْ مَظْهَرِها . فَلَقَدْ بَدا جَمالُها رائِعًا ، حَتّى لَيُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّهُ كانَ رائِعًا بِطَريقَةٍ تُثيرُ الخَوْفَ .

وَفي هٰذا الصَّباحِ وَصَلَتْ رِسالَةٌ مُعَنْوَنَةٌ بِاسْمِ لوسي ، وَعَرَفَ آرْثَر أَنَّها بِخَطِّ مِينا فَفَتَحَها وَقَرَأَها عَلَيْهِما . وَالواقِعُ أَنَّها لَمْ تَتَضَمَّنِ الكَثيرَ ، فيما عَدا أَنَّ مِينا تَزَوَّجَتْ في بودابِسْت ، وَأَنَّها عادَتْ هِيَ وَجوناثان إِلى إِكْسْتَر .

وَلٰكِنَّ فان هِيلْسِينْغ أَبْدى اهْتِمامًا وَقالَ : « لا بُدَّ أَنْ أُقابِلَها ، وَسَوْفَ أَطْلُبُ مِنْها الحُضورَ إِلى لَنْدَن ، فَلَعَلَّها تَسْتَطيعُ أَنْ تُخْبِرَني بِأَشْياءَ أُريدُ مَعْرِفَتَها . »

أَمّا مِنْ حَيْثُ جِنازَةِ لوسي وَأُمِّها فَلَيْسَ هُناكَ الكَثيرُ الَّذي يُقالُ ، فَبَعْدَ أَنْ دُفِنَتا في مَقْبَرَةِ أُسْرَةِ وِسْتِنْرا عادَ آرْثَر إِلى لَنْدَن لِرِعايَةِ والِدِهِ ، وَعادَ الدُّكْتور سيوارْد إِلى المُسْتَشْفى . أَمّا فان هِيلْسِينْغ فَقَدْ كانَ مِنَ الغَريبِ أَنَّهُ — بِالرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ مَشاغِلِهِ — لَمْ يَكُنْ راغِبًا في العَوْدَةِ إِلى أَمِسْتِرْدام .

وَسَأَلَ سيوارْد عَمّا إِذا كانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يُقيمَ مَعَهُ فَتْرَةً ، وَقالَ إِنَّهُ يَأْمُلُ أَنْ يُدَبِّرَ لِقاءً مَعَ مِينا . وَلٰكِنَّ سيوارْد أَحَسَّ أَنَّ هٰذا لَمْ يَكُنِ السَّبَبَ الوَحيدَ في رَغْبَتِهِ في الإِقامَةِ ، وَتَساءَلَ في نَفْسِهِ : « أَتُراهُ يَرْغَبُ في الانْتِظارِ لِأَنَّهُ يَتَوَقَّعُ حُدوثَ شَيْءٍ ؟ »

وَفِعْلًا حَدَثَ شَيْءٌ بَعْدَ أُسْبوعٍ مِنَ الجِنازَةِ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ يَمَسُّ حَياتَهُمْ مِنْ أَيِّ ناحِيَةٍ ، وَإِنَّما بَدا ذا أَهَمِّيَّةٍ لِفان هِيلْسِينْغ .

كانا يَجْلِسانِ في مَكْتَبِ الدُّكْتور سيوارْد ذاتَ مَساءٍ يَتَناوَلانِ الشّايَ في هُدوءٍ كَالعادَةِ ، وَكانَ الطَّبيبُ يَقْرَأُ صَحيفَةَ لَنْدَن المَسائِيَّةَ الَّتي كانَ يُحِبُّ الاطِّلاعَ عَلَيْها في هٰذا الوَقْتِ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَسَأَلَ سيوارْد :

« هَلْ قَرَأْتَ عَنْ حَوادِثِ الاعْتِداءِ عَلى الأَطْفالِ الَّتي وَقَعَتْ في لَنْدَن يا بروفيسور ؟ يَبْدو أَنَّ عَدَدًا مِنَ الأَطْفالِ في شَمالِ لَنْدَن قَدِ اخْتَفَوْا وَهُمْ يَلْعَبونَ ، وَكانَ يُعْثَرُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ بِضْعِ ساعاتٍ ، وَفي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ غالِبًا ، وَهُمْ في حالَةٍ مِنَ الشُّحوبِ وَالإِعْياءِ يُرْثى لَها ، وَفي أَعْناقِهِمْ جُروحٌ . »

وَكَرَّرَ سيوارْد العِبارَةَ الأَخيرَةَ « وَفي أَعْناقِهِمْ جُروحٌ » ثُمَّ سَأَلَ : « أَلَيْسَ هٰذا مُثيرًا ؟ » وَواصَلَ كَلامَهُ : « وَكانَ كُلٌّ مِنَ الأَطْفالِ يَقولُ — بَعْدَ أَنْ يُفيقَ — إِنَّهُ قابَلَ سَيِّدَةً ، وَإِنَّها كانَتْ تَأْخُذُهُ لِيَتَمَشّى مَعَها ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْ هٰؤُلاءِ الأَطْفالِ يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَذَكَّرَ ما حَدَثَ لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ . »

وَتَناوَلَ فان هِيلْسِينْغ الصَّحيفَةَ وَقَرَأَ القِصَّةَ كامِلَةً بِعِنايَةٍ ثُمَّ سَأَلَ : « ما رَأْيُكَ في هٰذا المَوْضوعِ ؟ »

فَأَجابَ سيوارْد : « لَيْسَتْ لَدَيَّ فِكْرَةٌ ، فيما عَدا أَنَّ الحالَةَ تَبْدو أَشْبَهَ قَليلًا بِحالَةِ لوسي . »

فَقالَ هِيلْسِينْغ : « أَشْبَهُ قَليلًا فَقَطْ ؟ هَلْ تَقْصِدُ أَيُّها الصَّديقُ أَنَّكَ — بَعْدَ كُلِّ ما رَأَيْتَهُ — لا تَزالُ لَيْسَتْ لَدَيْكَ فِكْرَةٌ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَوْتِ لوسي المِسْكينَةِ ؟ »

قالَ سيوارْد : « لَقَدْ ماتَتْ نَتيجَةً لِما فَقَدَتْهُ مِنْ دِماءٍ . »

قالَ فان هِيلْسِينْغ : « وَكَيْفَ فَقَدَتْ دِماءَها ؟ »

سَكَتَ سيوارْد ، فَقالَ فان هِيلْسِينْغ : « إِنَّكَ رَجُلٌ ذَكِيٌّ يا صَديقي . وَلٰكِنَّكَ تَنْظُرُ

إلى الحياةِ نظرةً ضيِّقةً . إنَّكَ تظنُّ أنَّ العِلْمَ يقدِّمُ لنا إجاباتٍ عَنْ كُلِّ شيْءٍ ، ولٰكِنَّكَ مُخطِئٌ . فهناكَ أشياءُ كثيرةٌ لا يستطيعُ العِلْمُ أنْ يصِلَ إليْها ، وأنْتَ لا تُريدُ أنْ تَراها . إنَّ كُلًّا مِنْ لُوسي وهٰؤلاءِ الأطفالِ فقدوا دِماءَهُمْ بِسَبَبِ الجُروحِ الَّتي في أعْناقِهِمْ . والآنَ أخبِرْني ، مَنِ الَّذي أحْدَثَ هٰذِهِ الجُروحَ ؟ »

قالَ سيوارْد : « لقدْ سَمِعْتُ عَنْ خفافيشَ في أمْريكا الجنوبيَّةِ تمْتَصُّ دِماءَ النّاسِ أوِ الحيواناتِ في أثْناءِ نَوْمِهِمْ بِهٰذِهِ الطَّريقةِ ، ولٰكِنْ ليْسَ لدَيْنا في إنْجِلْترا مِثْلُ هٰذِهِ الخفافيشِ . »

فقالَ فان هيلْسينغ . « أصَبْتَ ياصديقي جاك ، ولٰكِنْ إذا لَمْ يَكُنِ الَّذي امْتَصَّ دِماءَ لُوسي مِنَ الخفافيشِ مَصّاصةِ الدِّماءِ ، فماذا يكونُ إذًا ؟ »

فلاذَ سيوارْد بالصَّمْتِ لحْظَةً ، ثُمَّ اسْتدارَ بِوَجْهٍ شاحِبٍ كَسيفٍ نحْوَ فان هيلْسينغ وقالَ : « أتُريدُني أنْ أعْتَقِدَ أنَّ مَصّاصَ دِماءٍ .. أنَّ رَجُلًا مَصّاصَ دِماءٍ هُوَ الَّذي أحْدَثَ هٰذِهِ الجُروحَ ؟ ولٰكِنّي لا أُومِنُ بِوُجودِ مَصّاصينَ لِلدِّماءِ مِنَ البَشَرِ . إنَّنا لا نَعيشُ في عالَمِ الأساطيرِ والقِصَصِ الخُرافيَّةِ . إنَّهُ لا يَعْتَقِدُ في أشْياءَ كَهٰذِهِ إلّا مَجْنونٌ »

فنظَرَ فان هيلْسينغ إلى سيوارْد مَحْزونًا وقالَ : « كُنْتُ أتمنّى أنْ أكونَ مَجْنونًا ولا أُضْطَرَّ إلى القَوْلِ بِأنَّ لُوسي قَدْ قُتِلَتْ حَقيقةً بِيَدِ مَصّاصِ دِماءٍ . ولٰكِنْ ، ليْسَ هٰذا كُلَّ شيْءٍ . » وهُنا غطّى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ كما لوْ كانَ غَيْرَ راغِبٍ في الاسْتِمْرارِ في الحَديثِ . ثُمَّ قالَ :

« لا تَظُنَّ أنَّ مَصّاصَ الدِّماءِ الَّذي شَرِبَ دِماءَ هٰؤلاءِ الأطْفالِ هُوَ نَفْسُ مَصّاصِ الدِّماءِ الَّذي شَرِبَ دَمَ لُوسي . »

فقالَ سيوارْد : « ماذا تَعْني يابْروفيسور ؟ »

فأجابَ : « أعْني يادُكْتور سيوارْد أنَّ مَصّاصَ الدِّماءِ الَّذي اعْتدى على هٰؤلاءِ الأطْفالِ هُوَ لُوسي نَفْسُها ! »

القِسْمُ الرّابِعُ

لــــنــــدن

الفصْلُ الثّالِثَ عشَرَ

أخذ فان هيلْسينغ ينْظُرُ إلى الدُّكْتور سيوارْد فتصْطَدِمُ نظَراتُهُ مُباشَرةً بِعَيْنَيْنِ غاضِبَتَيْنِ ، لَمْ يَكُنْ يَسيرًا على سيوارْد أنْ يتقبَّلَ عَقْلُهُ بِسُهولةٍ فِكْرةَ أنَّ الفتاةَ الَّتي أحبَّها يَوْمًا مصّاصةُ دِماءٍ تُهاجِمُ صِغارَ الأطْفالِ لِتشْرَبَ دِماءَهُمْ . وكانَ فان هيلْسينغ واثِقًا أنَّهُ ليْسَ في مكْتبةِ الدُّكْتور سيوارْد أيُّ مَرْجِعٍ يتضمَّنُ معْلوماتٍ عَنْ مَصّاصي الدِّماءِ ، ولٰكِنَّ هٰذا لا يعْني أنَّهُمْ غيْرُ موْجودينَ . إنَّهُمْ موْجودونَ ، وعلى فان هيلْسينغ أنْ يُثْبِتَ ذٰلِكَ . صَحيحٌ أنَّ هُناكَ الكثيرَ الَّذي لا يعْرِفُهُ هُوَ نفْسُهُ عَنْ هٰذا المَوْضوعِ بَعْدُ ، ولٰكِنْ هُناكَ حقيقةٌ مُؤلِمةٌ واضِحةٌ لَهُ وهِيَ أنَّهُ كانَ هُناكَ في البيئةِ الَّتي تُحيطُ بِهِمْ مَصّاصُ دِماءٍ واحِدٌ ، أمّا الآنَ فقَدْ أصْبَحَ هُناكَ اثْنانِ ، وفي الأُسْبوعِ القادِمِ أوِ الشَّهْرِ القادِمِ قَدْ يُصْبِحُ هُناكَ ثلاثةٌ أوْ أرْبعةٌ أوْ خَمْسةٌ ، وهُوَ الوَحيدُ « أبْراهام فان هيلْسينغ مِنْ أمْسْتِردام » الَّذي يَسْتَطيعُ أنْ يمْنَعَ هٰذا التَّكاثُرَ ، ولٰكِنَّهُ في حاجةٍ إلى مَنْ يُعاوِنُهُ .

قالَ فان هيلْسينغ في رِقَّةٍ : « ياصديقي ، إنَّ الحقيقةَ قدْ يكونُ حَمْلُها شاقًّا ، وأنا لا أتوقَّعُ — وأنْتَ أحَدُ العُلَماءِ — أنَّهُ يُمْكِنُكَ أنْ تُصدِّقَ شيْئًا بِدونِ بُرْهانٍ ، ولٰكِنّي أسْتطيعُ أنْ أُقدِّمَ لكَ هٰذا البُرْهانَ إذا جِئْتَ مَعي . »

فسألَهُ سيوارْد في ارْتِيابٍ : « إلى أيْنَ ؟ »

فأجابَ فان هيلْسينغ : « أوَّلًا إلى مُسْتَشْفى شَمالِ لَنْدَن لِكَيْ نَرى أحَدَ الأطْفالِ . »

فسألَهُ سيوارْد : « وبَعْدَ ذٰلِكَ ؟ »

فكانَ جوابُ فان هيلْسينغ أنْ أخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ مِفْتاحًا كبيرًا ورفَعَهُ في يَدِهِ ، ولَمْ يَكَدْ سيوارْد يَرى المِفْتاحَ حتّى شَحَبَ لوْنُهُ ، فقدْ كانَ مِفْتاحَ المَقْبَرةِ ، وقالَ في صوْتٍ خافِتٍ :

« لا ليس إلى هناك ؟ لم يمض على موتها إلا أسبوع ! كان من الممكن أن أزور المقبرة لو أن الميت شخص آخر ، أما هي فلا . لقد كانت جميلة وهي ميتة ، وإنما أحب أن أحتفظ بذكراها وهي على هذه الصورة ، لا على الصورة التي أصبحت عليها الآن . »

فقال فان هيلسينغ : « ياصديقي إنه بسبب حبك لها أطلب منك الآن أن تأتي معي . وإذا لم نكن قد استطعنا أن ننقذ حياتها ، فمن الواجب علينا الآن — على الأقل — أن نحاول إنقاذ روحها . »

وصل فان هيلسينغ والدكتور سيوارد إلى المستشفى حوالى الساعة السادسة . وكان الطفل في تحسن مستمر وكشف الطبيب الذي يتولى علاجه عن عنقه ، وأراهما آثار الجروح فيه ، ولم يكن هناك أي شك في أنها كانت تشبه تلك التي كانت في عنق لوسي . ولما سأل فان هيلسينغ الطبيب عن رأيه في سبب حدوث هذه الآثار أجاب :

« لا يمكن إلا أن يكون حيوانا ما ، كالفأر مثلا . كما يمكن أن يكون خفاشا ، ولكن ليس بالطبع من الخفافيش المحلية ، وإنما من نوع أجنبي ، فهناك كثير من الناس يحضرون إلى إنجلترا حيوانات غريبة من أنحاء مختلفة من العالم . بل يمكن أن يكون حيوانا هاربا من حديقة الحيوان . نعم ، فمنذ أسبوع أو أسبوعين فقط هرب منهم ذئب . أعتقد أنهم مهملون غاية الإهمال . »

كانت الشمس تميل للغروب حينما غادرا المستشفى وتوجها نحو هامبستيد ، التي تقع على ربوة تطل على لندن من الشمال . سارا في شوارع خالية مظلمة حتى بلغا زقاقا صغيرا في أحد جانبيه جدار . وتطلعا حولهما فلما لم يجدا أحدا في الزقاق تسلقا الجدار إلى حيث توجد المقابر .

كان فان هيلسينغ يعرف وجهته تماما ، وما هي إلا لحظات حتى كان الرجلان يقفان أمام مقبرة وستنرا . فأشعل البروفيسور شمعة وفتح الباب ، ثم انحنى جانبا وأشار بيده للدكتور سيوارد — مجاملة منه وتأدبا — لكي يدخل أولا . وبدا على وجه سيوارد أنه

يرحب بهذه اللفتة من التأدب وحسن السلوك ، ولكن لم يسعه إلا الامتثال فأخذ الشمعة ودخل .

كانت المقبرة — عندما شاهداها في المرة السابقة حين دفنت لوسي — مكانا مُفصصًا على الرغم من أن ذلك كان في ضوء النهار ، وعلى الرغم من عبق الزهور النضرة آنذاك ، فكيف يكون الحال وقد ذبلت الزهور وحال لونها ؟ وكيف يكون بعد أن فقدت الفضة والنحاس والتصاوير التي توشي تابوت لوسي بريقها ؟ وسأل سيوارد : « ماذا تعتزم أن تفعل ؟ »

فأجاب البروفيسور : « راقب ، وسوف ترى . »

ثم فتح التابوت من أعلاه ، وكان تحت الفتحة غطاء من الرصاص يحيط بالجثة تماما . وكان البروفيسور قد أخذ أهبته فأحضر معه ما يلزم من أدوات لمواجهة الموقف ، فشرع يقطع الرصاص . ثم توقف حين رأى الدكتور سيوارد يتسلل من جواره ويرجع متجها نحو باب المقبرة وهو يقول في صوت مرتجف : « بروفيسور ، إنها ميتة منذ أسبوع ، ولست أرغب في رؤيتها ثانية . »

فقال البروفيسور : « ابق هنا ما لم تكن خائفا من مواجهة الحقيقة . » وانتهى فان هيلسينغ من عمل الفتحة ، ثم قطع الجزء الذي يقع تحت وسط الغطاء الرصاصي ، ولم يكن هناك أي عائق ، لم تكن هناك أي رائحة للموت .

قال البروفيسور : « والآن سوف أجذب أحد طرفي الرصاص ، وتقف أنت في مواجهتي لتجذب الطرف الآخر وحينئذ سوف ترى ما ترى . »

وهكذا جذبا الرصاص من جانبي القطع كليهما ، وإذا بالتابوت خال ، فقال فان هيلسينغ : « البرهان الأول ! تعال ! اتبعني ! »

ومضى البروفيسور ، يتبعه صديقه الصامت المذهول إلى خارج المقبرة ، وسأله أن يغلقها ، ثم قال له : « والآن سوف ننتظر ، وإذا وقفنا تحت هذه الأشجار على مسافة قريبة من المقبرة فإننا نستطيع أن نرى أي شيء يحدث . »

وانتظرا ، وطال الانتظار ، وسمعا ساعة تدق الثانية عشرة ، ثم تدق الواحدة ، ثم الثانية . ولابد أن الساعة كانت قد قاربت الثالثة حينما أطبقت يد فان هيلسينغ على ذراع سيوارد ، ثم أشار له إلى شكل أبيض يتحرك بين الأشجار على بعد عشرين أو ثلاثين مترًا . وتحرك فان هيلسينغ من تحت الأشجار وتقدم منه ، وبدا كأنه رآه ، فتوقف ثم تقهقر إلى الوراء واختفى ، في نفس اللحظة التي تعثر فيها فان هيلسينغ وسقط فوق شيء ملقى في ممر من العشب الطويل . وحينما سمع سيوارد صيحة الدهشة التي أطلقها فان هيلسينغ خف إليه مسرعًا ، وأشعل عود ثقاب ، وإذا فوق الأرض طفل صغير لايزال في سبات عميق ، وصاح البروفيسور وهو ينهض من فوق العشب : « البرهان الثاني ! »

وقال سيوارد بعد أن فحص الطفل : « ليس بالعنق أي أثر . »

فقال البروفيسور « لم يتسع لها الوقت ، ولكن ، إذا لم يكن البرهان الثاني كاملًا سوف أريك البرهان الثالث ، وحينئذ ، لعلك تقتنع . »

وكان الطفل لايزال نائمًا ، فمهد له سيوارد مكانًا فوق العشب ، وتبع فان هيلسينغ إلى المقبرة . كانت الشمس قد بدأت تطلع حينما فتحا الباب ، ولكن الظلمة كانت حول التابوت كما كانت من قبل ، فقال البروفيسور . « أشعل عود ثقاب . »

وفوجئ سيوارد بأن التابوت لم يكن خاليًا كما كان من قبل ، وإنما كانت لوسي ترقد فيه وهي تبدو بمثل ما كانت تبدو قبل الجنازة تمامًا . كانت — لو كان هذا ممكنًا — أكثر جمالًا منها في أي وقت مضى ، فهل يمكن أن يكون هذا وجه فتاة انقضى على موتها سبعة أيام ؟ وجذب فان هيلسينغ شفتيها إلى الخلف كاشفًا عن أسنانها ، وقال : « انظر إنها أشبه بحد السكين . كم مرة ، يادكتور سيوارد ، ينبغي أن تنغرس هذه الأسنان في عنق طفل حتى تؤمن أن معنا الآن مصاصة دماء متعطشة إلى الدم ، وأن علينا أن نقضي عليها نهائيًا ؟ »

كان سيوارد يبدو وكأنه لا يستطيع أن يمنع عينيه من التطلع إلى هذا الجمال الشرير بهذا الجسد الثاوي في ذلك التابوت . ثم سأل : « بروفيسور ، ماذا ينبغي علينا أن نفعل ؟ »

فأجاب البروفيسور : « ننزع رأسها من جسدها ، ونملأ فمها بالثوم ، ونغرس قطعة سميكة من الخشب لتتغلغل في قلبها . ولكن ليس الآن ، فلسنا مستعدين لذلك بعد . ثم إننا — بسبب المخاطر التي تواجهنا — في حاجة إلى مزيد من العون ، وفوق هذا ، فإن الذي أطلعتك عليه الليلة لابد أن يطلع عليه آرثر هولموود . لنرحل الآن . »

وهكذا أغلقا المقبرة ، ثم حملا الطفل الذي كان لايزال نائمًا ووضعاه خارج بوابة المقبرة ، وهم على يقين أن الشرطة سوف تجده عاجلًا . وكان جميلًا أن يحسا دفء الشمس حينما غادرا المرتفعات ، وسارا عائدين إلى لندن

الفصل الرابع عشر

لم يكن من اليسير إقناع آرثر بالمجيء إلى المقبرة، ولكنه جاء أخيرًا. وكان الفضل في ذلك لجاك سيوارد. ذلك أن فان هيلسينغ كان يعلم أن كلام سيوارد مع آرثر سوف يكون أوقع أثرًا من كلامه هو، ولكنه كان يعلم كذلك أنه لا كلامه ولا كلام سيوارد يمكن أن يقنع آرثر بأن لوسي مصاصة دماء، وإنما لوسي نفسها هي التي تستطيع إقناعه.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حينما وقف الرجال الثلاثة حول التابوت. وكان فان هيلسينغ يحمل حقيبة طويلة.

وقال فان هيلسينغ: «دكتور سيوارد، حينما غادرنا هذه المقبرة صباح اليوم كانت جثة لوسي في تابوت، أليس كذلك؟»

أجاب سيوارد: «بلى. لقد كانت في التابوت يابروفيسور.»

فقال فان هيلسينغ بطريقة الحواة والسحرة: «سأفتح التابوت الآن.»

ثم فتحه، ونظر الجميع، فإذا هو خالٍ. وغشي الجميع صمت طويل، ثم قال آرثر في صوت حاد: «بروفيسور، أعلم أنك لم تكن لتنقل جثتها، فمن الذي نقلها؟ من ذا الذي يستطيع أن يفعل شيئًا كهذا؟»

فلم يجب فان هيلسينغ، وإنما خرج من المقبرة وهما يتبعانه. ثم أوصد الباب، وأخرج من حقيبته بعض الخبز الملفوف في قطعة قماش بيضاء، وأخذ يطويه بين أصابعه، ثم دسه في الفراغ الذي بين الباب وحجر المقبرة الذي يحيط به، وكذلك في ثقب القفل، وقال وهو يفعل ذلك:

«هذا خبز مقدس بورك في الكنيسة، وسأغلق المقبرة حتى لا يستطيع أي كائن شرير أن يدخلها»

مسألة آرثر وهو لا يزال تحت تأثير الصدمة التي أصابته بسبب اختفاء جثة لوسي: «وماذا بعد ذلك؟»

فأجاب فان هيلسينغ: «والآن استعدوا، فإنكما في حاجة إلى قدرة عقلية عالية، فهيا بنا ننتظر خلف هذه الشجرة حيث نستطيع أن نرى المقبرة.»

كان فان هيلسينغ يتحدث كما لو كان يعرف تمامًا ما الذي سيحدث، ولكنه كان في الوقت نفسه يشعر بالشك والخوف. لقد كان في حالة انجذاب إلى أعماق سحيقة من العالم اللاطبيعي .. عالم اللاموتى الذي يطلق على مصاصي الدماء. وحينما نظر حوله كان يخالجه شعور بأنه لم ير قط في الليل مكانًا مثل هذا يثير بشرًا كثير. كانت أحجار القبور يلمع بياضها كمثل عظام الموتى. وكلما هبت الريح خيل إليه أنه يسمع حركة أجنحة ترفرف، وحركة أشياء في العشب تزحف، وأيقن أنه ما كان ليستطيع أن يظل في هذا المكان لو أنه كان وحده.

لم يكن أحد منهم ينبس بكلمة، بل إن الريح توقفت أخيرًا وخلفت وراءها سكونًا كسكون الأحلام، وانقضت ساعة أعقبها صوت.

كان جاك سيوارد قد شهق حين لمح شيئًا، وأشار بيده. كان هناك على مسافة منهم شكل أبيض يخرج من بين صفين من الأشجار حاملًا شيئًا ما بين ذراعيه، ثم توقف في بقعة انعكس عليها ضوء القمر، فإذا المشهد هذه المرة واضحًا كل الوضوح. كانت سيدة ذات شعر ذهبي، تأتزر بقماش أبيض كقماش الأكفان، وتتقدم إلى الأمام ممسكة بطفل صغير، وتقدمت السيدة حتى أصبحت قريبة منهم بحيث أمكنهم أن يتبينوها .. كانت لوسي.

ولكن لوسي التي تغيرت كثيرًا كانت شفتاها تقطران بدماء الطفل الطازجة، وكان الدم يسيل على وجهها حتى صبغ القماش الأبيض الذي تأتزر به.

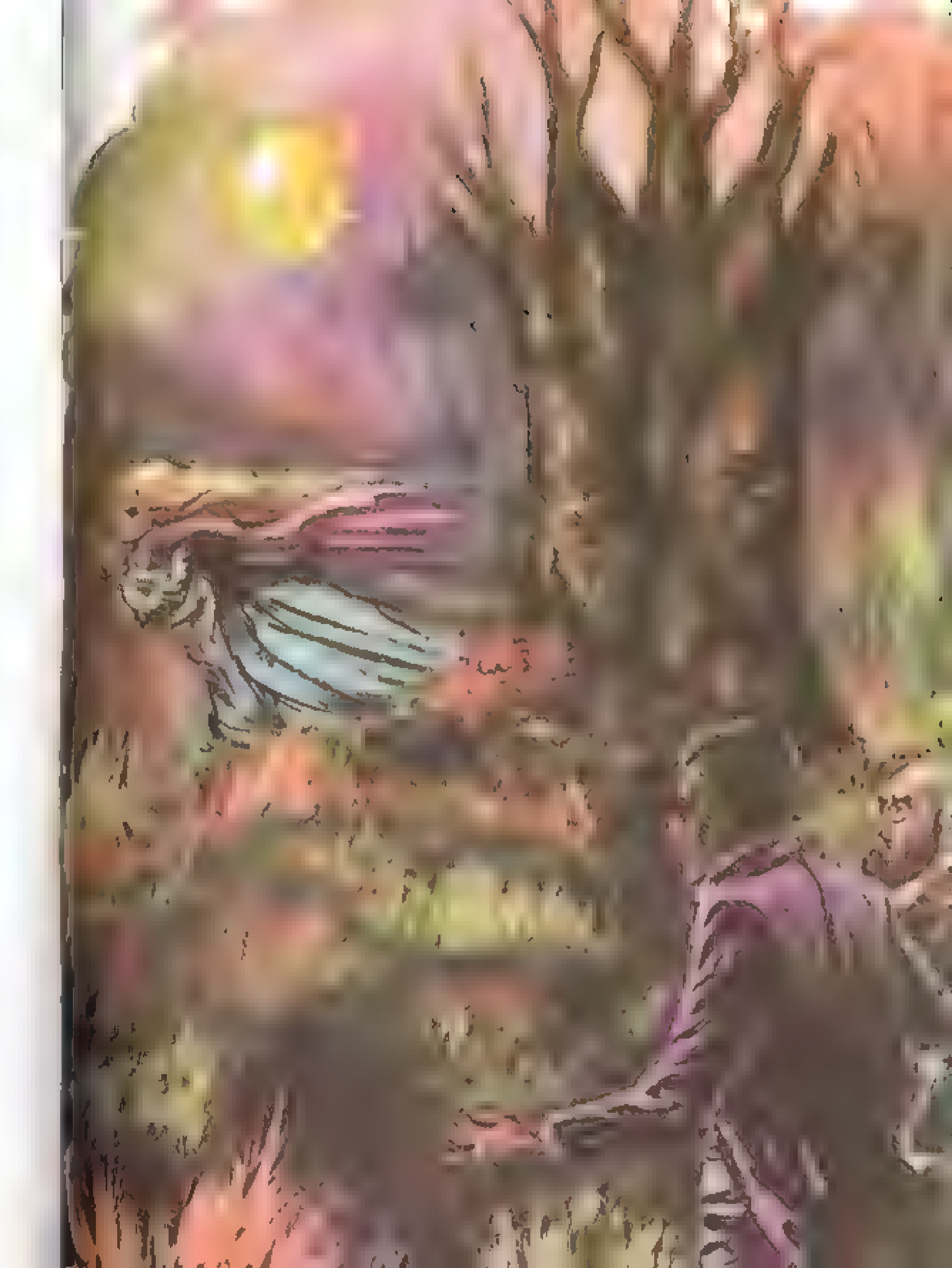
وَتَقَدَّم ڤان هيلْسِينْغ خُطُواتٍ إلى الأَمامِ ، وَما كادَتْ تَراهُ حَتّى انْسَحَبَتْ إلى الخَلْفِ مُحْدِثَةً زَمْجَرةً غاضِبةً ، وَأَلْقَتِ الطِّفْلَ الَّذي كانَتْ — حَتّى الآنَ — تَحْتَفِظُ بِهِ بَيْنَ يَدَيْها كَما يَحْتَفِظُ الكَلْبُ بِعَظْمةٍ ، فَصَرَخَ صَرْخةً أَلِيمةً تَأَثَّرَ لَها آرْثَر ، فَأَطْلَقَ بِدَوْرِهِ صَيْحةً لَمْ تَكَدْ لُوسي تَسْمَعُها حَتّى تَغَيَّرَتْ ثانِيةً . فَقَدْ رَأَتْ آرْثَر وَمَدَّتْ إِحْدى يَدَيْها نَحْوَهُ بِطَريقةٍ عَفَوِيَّةٍ ، نَفْسِ طَريقةِ لُوسي الَّتي أَلِفَها ، ثُمَّ قالَتْ : « آرْثَر ، دَعْ أَصْدِقاءَكَ وَتَعالَ مَعي . »

كانَتْ هُناكَ نَغْمةٌ حُلْوةٌ في صَوْتِها ، بَلَغَ مِنْ حَلاوَتِها أَنْ ڤان هيلْسِينْغ نَفْسَهُ شَعَرَ بِانْجِذابٍ إِلَيْها . أَمّا آرْثَر فَقَدْ وَقَفَ كَأَنَّما مَسَّهُ سِحْرٌ . فَتَبَسَّمَتْ لَهُ ثانِيةً ، فَتَقَدَّمَ نَحْوَها ، وَلٰكِنَّ ڤان هيلْسِينْغ كانَ بِالمِرْصادِ ، وَقَبْلَ أَنْ تُطْبِقَ لُوسي بِأَسْنانِها عَلى عُنُقِ آرْثَر وَثَبَ إلى الأَمامِ رافِعًا أَمامَهُ صَليبَهُ الذَّهَبِيَّ الصَّغيرَ . وَلَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتّى صَرَخَتْ صَرْخةً ضارِيةً كَما لَوْ كانَ قَدْ لَمَسَها حَديدٌ مَحْمِيٌّ أَحْمَرُ ، وَقَفَزَتْ إلى الوَراءِ ، ثُمَّ جَرَتْ نَحْوَ بابِ المَقْبَرةِ ، وَلٰكِنَّها تَوَقَّفَتْ هُناكَ ثانِيةً إِذْ إِنَّ ڤان هيلْسِينْغ كانَ قَدْ أَدّى عَمَلَهُ بِنَجاحٍ . وَأَخيرًا لَمْ تَجِدْ مَفَرًّا مِنْ أَنْ تَجْرِيَ خِلالَ ظِلِّ شَجَرةٍ . وَكانَ كُلُّ ما اسْتَطاعوا أَنْ يُشاهِدوهُ مِنْها هُوَ بَياضَ أَثْوابِها وَهِيَ تَلْمَعُ في الظَّلامِ .

وَسادَ السُّكونُ حَيْثُ صارَ كُلٌّ مِنَ الحَيِّ وَاللّامَيِّتِ في حالةِ ذُهولٍ . وَفي النِّهايةِ اسْتَدارَ ڤان هيلْسِينْغ نَحْوَ آرْثَر — وَالصَّليبُ لا يَزالُ مَرْفوعًا في يَدِهِ — وَسَأَلَهُ في صَوْتٍ مُرْتَجِفٍ : « هَلْ أَسْتَمِرُّ في عَمَلي ؟ »

فَجَثا آرْثَر عَلى رُكْبَتَيْهِ ، وَغَطّى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ قائِلًا : « اِفْعَلْ ما تَعْتَقِدُ أَنَّهُ لازِمٌ . لَنْ يَكونَ هُناكَ ما هُوَ أَسْوَأُ مِمّا رَأَيْتُ »

وَعادَ البْروفيسور إلى بابِ المَقْبَرةِ ، وَأَخْرَجَ بَعْضًا مِنَ الخُبْزِ المُقَدَّسِ ، وَفَتَحَ البابَ قَليلًا . أَمّا لُوسي فَكانَتْ كَأَنَّما اجْتَذَبَتْها قُوَّةٌ قاهِرةٌ لا تَسْتَطيعُ الصُّمودَ أَمامَها ، فَدَلَفَتْ مِنْ ظِلالِ الأَشْجارِ عائِدةً إلى المَقْبَرةِ وَاخْتَفَتْ مِنْ خِلالِ الفَراغِ في فُتْحةِ البابِ ،



وحينئذٍ أعادَ البروفيسور الخبزَ إلى مكانِهِ وأغلقَ الباب ، ثُمَّ قال :

« أيُّها الأصدقاءُ ، لَيْسَ أمامَنا ما نستطيعُ عَمَلَهُ قَبْلَ بُزوغِ ضَوْءِ النَّهارِ . إنَّها لا تستطيعُ الخروجَ الآنَ فهي مُنْهَكَةٌ ، وبِنْيَتُها ضعيفةٌ واهِنةٌ بِسَبَبِ أنَّها لَمْ تَذُقْ ما يُشْبِعُها لِمُدَّةِ لَيْلَتَيْنِ ، وسَرْعانَ ما يُدْرِكُها النُّعاسُ ، وحينئذٍ سوف نؤدّي مُهِمَّتَنا . »

وبينما كانَ الرِّجالُ الثَّلاثةُ ينتظرونَ بزوغَ الشَّمْسِ كانتِ الأفكارُ الصَّعبةُ تجولُ في أذهانِهِمْ . ثُمَّ ظهرَتْ حُمْرةُ السَّماءِ وبزغَتِ الشَّمْسُ ، وانتظرَ كُلٌّ مِنْ سيوارد وآرثر صُدورَ كلمةٍ مِنَ البروفيسور ، ولكنْ لَمْ يَبْدُ عليهِ أنَّهُ مُتَعَجِّلٌ في الشُّروعِ في العَمَلِ . وأخيرًا أخرجَ ساعتَهُ الذَّهبيَّةَ الثَّقيلةَ ونظرَ فيها ثُمَّ قالَ « إنَّها السَّادسةُ والنِّصْفُ . لدينا نِصْفُ ساعةٍ . »

كانَتْ لوسي مُسْتَغْرِقةً في نَوْمِها ، وكانَتْ جميلةً مِثْلَما كانَتْ دائمًا . أمّا آرثر فكانَ شاحِبًا حتّى يُخَيَّلَ إليكَ أنَّهُ هُوَ المَيِّتُ . وحينما انحنى فوقَ التّابوتِ أخذَ ينتحبُ عَلانِيَةً . ولكنْ فان هيلسينغ لَمْ تَكُنْ أحاسيسُهُ كأحاسيسِ آرثر ، وإنّما كانَ بَصَرُهُ مُرَكَّزًا على الدَّمِ الجافِّ الَّذي يُلَطِّخُ فَمَها . فتحَ الحقيبةَ وأخرجَ بعضَ الآلاتِ الطِّبِّيَّةِ والمَصابيحِ وقطعةَ خَشَبٍ غليظةً مُدَبَّبةَ الطَّرَفِ يبلغُ طولُها نَحْوَ مِتْرٍ ، ومِطْرقةً ثقيلةً ، وقالَ :

« مصّاصو الدِّماءِ لا يموتونَ بانقضاءِ العُمْرِ ، ولكنَّهُمْ يستمرّونَ في الحياةِ ، يتغذّونَ بالدِّماءِ ، ويُحَوِّلونَ غيرَهُمْ إلى مصّاصي دِماءٍ مِثْلِهِمْ . وهكذا تتَّسِعُ دائرةُ اللاموتى على مَرِّ الأيّامِ ، وهؤلاءِ الأطفالُ الَّذينَ شربَتْ مِنْ دِمائِهِمْ لنْ يتأثَّروا كثيرًا ، أمّا أولئكَ الَّذينَ تُشْرَبُ دماؤُهُمْ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ فإنَّهُمْ يستمرئونَها ، فيتعلَّمونَ حُبَّ مصِّ دَمِهِمْ ومِنْ ثَمَّ يُصْبِحونَ مصّاصي دِماءٍ بعدَ أنْ يموتوا . أمّا أنتَ يا صديقي آرثر فلو أنَّكَ كُنْتَ منحتَها نَفْسَكَ لكانَ في ذلكَ خطرٌ أيُّ خطرٍ عليكَ ، ولكنْ هناكَ طريقًا لكي نُحَرِّرَ روحَ اللامَيِّتِ . نُحَرِّرُهُ مِنْ حياةٍ كُلُّها شَرٌّ ، ومِنْ آخِرةٍ كُلُّها عذابٌ أبديٌّ . » ثُمَّ أشارَ إلى المِطْرقةِ قائلًا :

« أعتقدُ أنَّ أمامَكَ عَمَلًا مُقَدَّسًا تقومُ بِهِ . أنْ تضرِبَ ضربَتَكَ وتُنْقِذَ روحًا . إنَّني أستطيعُ أنْ أقومَ بذلكَ ، ولكنْ أليسَ مِنَ الأفضلِ لذلكَ الَّذي أحبَّها كثيرًا أنْ يقومَ هُوَ بِهِ ليُخَلِّصَها بنفسِهِ ؟ »

فقالَ آرثر : « يا صديقيَ الوفيَّ ، أخبِرْني بما أفعلُ وسوفَ أقومُ بِهِ . »

فقالَ فان هيلسينغ : « رَجُلٌ شجاعٌ . خُذْ قطعةَ الخَشَبِ هذِهِ وضَعْ طرفَها المُدَبَّبَ على قلبِها بإحدى يديْكَ ، وحينما أنتهي مِنْ تلاوةِ الصَّلاةِ على المَيِّتِ مِنْ كتابِ الصَّلواتِ هذا اضربْ باسْمِ اللهِ . »

ومعَ أنَّ آرثر كانَ لا يزالُ شاحِبًا ، فإنَّهُ أخذَ قطعةَ الخَشَبِ بِيَدٍ قويَّةٍ ثابتةٍ والمطرقةَ باليدِ الأُخرى . وبدأَ فان هيلسينغ في تلاوتِهِ بينما ساعدَ الدُّكتور سيوارد في وضعِ الخشبةِ فوقَ القلبِ مُباشرةً .

وما إنِ انتهى البروفيسور مِنَ الصَّلاةِ حتّى ضربَ آرثر بكُلِّ ما يملكُ مِنْ قوَّةٍ . فاهتزَّ الجسدُ الَّذي في التّابوتِ اهتزازًا عنيفًا كما لو كانَ تعرَّضَ لصدمةٍ كهربيَّةٍ ، وانفتحَ الفمُ ليُطْلِقَ صيحةً جعلَتْ شعرَ رؤوسِهِمْ يقِفُ كأنَّهُ شعرُ قُنْفُذٍ . وأخذَ الجسدُ كُلُّهُ يتقلَّبُ يَمْنَةً ويَسْرَةً ، وأخذَتِ الأسنانُ الحادَّةُ تنفرجُ وتنطبقُ ، حتّى احمرَّتِ الشَّفتانِ بما انبثقَ منهما مِنْ دَمٍ . ومعَ هذا فإنَّ آرثر لَمْ يتوقَّفْ ، وكانَتْ يدُهُ اليُمْنى ترتفعُ بالمِطْرقةِ ثُمَّ تهوي مرَّةً بعدَ مرَّةٍ كُلَّما توغَّلَ طرفُ الخشبةِ أعمقَ ثُمَّ أعمقَ ، حتّى سكنَتْ حَرَكةُ الجسدِ الصّاربةُ تمامًا ، وانتهى الأمْرُ .

قالَ فان هيلسينغ : « قَبْلَ أنْ تُغادروا المَقْبرةَ ألقوا نظرةً أخيرةً على وَجْهِ لوسي ، إنَّها ليسَتِ الآنَ واحدةً مِنْ عالَمِ اللاموتى . »

فنظرَ آرثر ، وكانَ ما قالَهُ البروفيسور صحيحًا ، فبعدَ كُلِّ ما كانَ مِنْ دِماءٍ وألَمٍ ، كانَتْ لوسي ترقُدُ في سلامٍ . لَمْ تعُدْ مصّاصةَ دماءٍ ، وإنَّما صارَتْ لوسي الَّتي أحبَّها

وَالَّتي خنقها أخيرًا . وَمالَ عليْها فقبَّلها لِلْمَرَّةِ الأخيرةِ ، وَسارَ مُتثاقِلًا إلى خارج المقْبرةِ إلى ضوْءِ الشَّمْسِ .

أمّا الطَّبيبانِ فقدْ قطعا بقيَّةَ قِطْعةِ الخشبِ وَتركا الطَّرفَ المُدبَّبَ في قلْبها ، وَحشوا فمها بالثُّومِ ، وَفصلا رأْسها عنْ جسدِها ، ثُمّ أحْكما إغلاقَ التّابوتِ بالغطاءِ . وبعْد خُروجِهما أوْصدَ البروفيسور بابَ المقْبرةِ ، وَأعْطى آرْثر المِفْتاحَ ، ثُمّ قالَ :

« لقدِ انْتهى أوَّلُ جُزْءٍ منْ عملِنا ، وَيبْقى بعْد ذلِكَ الجُزْءُ الأعْظمُ . أنْ نجدَ سببَ البلاءِ الّذي نزلَ بلوسي ثُمّ نُدمّرهُ . كُلُّ ما أُريدُ أنْ أعْرفهُ هوَ : هلْ أنْتما مُسْتعِدّانِ لِتتْبعاني لِمُواجهةِ مخاطِرَ أُخْرى ؟ »

فقالَ جاك سيوارد : « أيْنما تذْهبْ فأنا معكَ . إنَّهُ واجِبٌ عليْنا أنْ نقْضيَ على هذا الشَّرِّ . »

وَنظرَ الاثْنانِ إلى آرْثر ، وَلكِنّهُما لمْ يكونا في حاجةٍ إلى سُؤالِهِ . لقدْ كانتْ تبْدو في عيْنيْهِ نظْرةُ الرَّجُلِ الّذي لا يُريدُ مِنَ الحياةِ إلّا شيْئًا واحِدًا ، وَالّذي لنْ يهْدأَ لهُ بالٌ إلّا إذا وَجدهُ .

الفصلُ الخامسَ عشرَ

وَهكذا جنّدَ فان هيلسينغ جيْشهُ الصّغيرَ ، ولكنْ أيْنَ العدُوُّ ؟ ففي حالةِ لوسي كانتْ خُطوطُ المعْركةِ واضِحةً ، وَالأمْرُ هاهُنا مُخْتلِفٌ . وَمعَ هذا ، فإنَّ فان هيلسينغ لمْ يكُنْ يسْتطيعُ الانْتظارَ حتّى يكْشِفَ العدُوُّ عنْ نفْسِهِ . لقدْ كانَ مِنَ الرّجالِ الّذينَ لا يُحِبّونَ التّربُّصَ وَالانْتِظارَ . وَفوْقَ هذا ، فقدْ كانَ هُناكَ أمْرٌ يُمْكِنُ أنْ يُقْضى ، أمّا هذا الأمْرُ فهُوَ الّذي قادهُ في اليوْمِ التّالي إلى محطّةِ باديغتون حيْثُ انْتظرَ وُصولَ جوناثان وَمينا هارْكر .

كانَ جوناثان مُنْذُ عوْدتِهِ مِنْ ترانسيلْفانيا يعيشُ في هُدوءٍ . كانَ قدْ عانى مِنْ صدْمةٍ عنيفةٍ ، وَلِذلِكَ أبْقتْهُ مينا بعيدًا عنْ لنْدن . أمّا الآنَ وقدْ تحسّنتْ حالتُهُ فقدْ قرّرتْ أنْ يذْهبا إلى لنْدن ليلْتقيا بفان هلْسينغ الّذي كانَ قدْ طلبَ لِقاءهُما مِرارًا .

وصلَ القِطارُ ، وَعادوا ثلاثتُهُمْ إلى الفُنْدُقِ الّذي نزلَ بهِ فان هلْسينغ . وَفي البِدايةِ روتْ قصّةَ إقامتِها معَ لوسي في هوبْتي وَما وَقعَ فيها مِنْ أحْداثٍ . وَقدْ أُعْجِبَ البروفيسور أيَّ إعْجابٍ بهذِهِ الفتاةِ الّتي كانتْ تعْرِفُ كيْفَ تتصرّفُ في المواقِفِ الصّعْبةِ . وبعْدَ ذلِكَ روى جوناثان قِصّتهُ معَ الكونْتِ دراكولا ، وَلمْ يسْتطِعْ فان هيلْسينغ بعْدَ أنِ اسْتمعَ إليْهِ أنْ يكْتُمَ مشاعِرهُ المُسْتثارةَ فسألهُ : « وَلكِنْ لِماذا لمْ تُنْبِئْ أحدًا بكُلِّ هذا مِنْ قبْلُ ؟ »

فقالتْ مينا : « بروفيسور ، لقدْ مضتْ أسابيعُ قبْلَ أنْ يسْترِدَّ عافيتهُ وَيُصْبِحَ قادِرًا على روايةِ قِصّتِهِ لِأحدٍ .. حتّى لي أنا . ثُمّ مَنْ تظُنُّ أنّهُ كانَ يُصدِّقُهُ إلّا أنا ؟ »

وَحينئِذٍ أخْبرهُما فان هيلْسينغ بكُلِّ ما حدثَ بعْدَ موْتِ لوسي ، ثُمّ قالَ لهُما : « سوْفَ تُصدِّقانِ قِصّتي كما صدّقْتُ قِصّتكُما ، وَلكِنْ — كما تقولُ — مَنْ غيْري وَغيْرُكُما يُصدِّقُ ؟ وَهذا هوَ السّببُ في أنّنا نحْنُ الّذينَ يجِبُ أنْ نُحارِبَ هذا الشّرَّ . إنّني أطْلُبُ إليْكُما أنْ تُشارِكانا في هذِهِ المعْركةِ . وَلسوْفَ نلْتقي اللّيْلةَ عِنْدَ الدُّكْتور سيوارد . إنّكِ ياسيِّدةُ هارْكر تعْلمينَ أكْثرَ مِنْ أيٍّ منّا مدى الخطرِ الّذي أسْألُكِ أنْ تُواجِهيهِ »

فتصفّحت مينا إلى وجه جوناثان الشاحب الّذي زحفت إليه التجاعيد ، وإلى شعره الّذي وخطه البياض . تطلّعت إليه وفي صدرها حقد على قوّة الشرّ الّتي جعلت الرّجل الّذي تحبّه يبدو مسنًّا قبل الأوان . ثمّ قالت : « سوف أساعدك . »

وقال جوناثان أخيرًا : « إذا ساعدتك مينا فإنّي سأساعدك كذلك . »

وبدا من الطّريقة الّتي نطق بها عبارته أنّه لم يتّخذ هذا القرار بسهولة . فقال فان هيلسينغ : « سنكون بانتظاركما في السّاعة السّابعة . إنّ ما سمعته منكما يجعلني على يقين أنّه ليس لدينا وقت نضيّعه . وفي الواقع ربّما سبق السّيف العذل . »

ثمّ قال بعد أن اجتمعوا وتباحثوا : « وهكذا أيّها الأصدقاء ، فهذه هي الحقائق الّتي اكتشفناها عن عدوّنا . وطبقًا لما تكشّف لنا ، فهو عدوّ قويّ ، ولكن له مواضع ضعف . وفوق كلّ شيء ، فهو في حاجة إلى مكان يستريح فيه أثناء ساعات النّهار ، فإذا استطعنا أن ندعته وهو في صندوقه فإنّنا نستطيع أن ندمّره . »

فقال سيوارد : « إذا ، ولكنّنا قبل ذلك نريد أن نعرف أين هذه الصّناديق ؟ »

فردّ فان هيلسينغ : « نحن نعرف — والفضل في ذلك لجوناثان — أنّها على بعد بضع مئات من الأمتار من الحجرة الّتي نجلس فيها الآن في منزل كارفاكس ؟ »

فصاح جاك سيوارد وآرثر هولموود في وقت واحد تقريبًا : « في منزل كارفاكس ؟ »

كان فان هيلسينغ يحبّ أن يثير دهشة سامعيه ، وقد أحدثت كلماته الأثر الّذي أراده . قال : « إنّ كارفاكس هو بيت دراكولا ، ولابدّ أن تكون الصّناديق فيه . »

فقال سيوارد : « هذا يفسّر حالة رينفيلد ، لابدّ أنّ دراكولا هو الّذي أثاره في ذلك اليوم . نعم ، منذ أسبوع أو أسبوعين هرب منّا رينفيلد ، وتبعناه إلى أراضي كارفاكس ، إلى أبواب الكنيسة القديمة . لابدّ أن تكون الصّناديق هناك . »

فصاح آرثر : « ماذا نحن منتظرون ؟ هيّا بنا . »

ولم يكن فان هيلسينغ يحبّ الاستعجال فقال : « ليس بهذه السّرعة . لابدّ أن نعدّ أنفسنا أوّلًا . »

ثمّ أخرج من جيبه صليبًا صغيرًا ذهبيًّا وعلّقه حول عنق جوناثان الّذي كان أقرب الجميع إليه ، وعلّق معه كذلك عقدًا من زهور الثّوم أخذه من صندوق كان بحوزته ، وفعل الشّيء نفسه مع كلّ من سيوارد وآرثر . فلمّا جاء دور مينا قال : « ياسيّدة مينا ، لا يمكنك أن تشاركينا في هذه المهمّة ، فهي ليست بالمهمّة الّتي تقوى عليها النّساء . لقد كانت رحلتك اليوم طويلة شاقّة ، ومن حقّك أن تستريحي . »

فقالت مينا إنّها ليست مرهقة ، وإنّها ترغب في الذّهاب معهم . ولكنّ فان هيلسينغ لم يرضخ لرغبتها ، وخرج الرّجال الأربعة وحدهم تحت ستار اللّيل . كان جاك سيوارد قد أحضر معه مجموعة من المفاتيح القديمة معلّقة في حلقة ، وحاول أن يفتح باب الكنيسة بأربعة عشر مفتاحًا ، واحدًا بعد الآخر ، فلم يفلح . أمّا الخامس عشر فقد دار في القفل فانفتح الباب إلى الدّاخل دون أن يدفعه أحد ، كما لو كان ثمّة من يتوقّع قدومهم . وكان أوّل من دخل فان هيلسينغ الّذي رسم بيده اليمنى في الهواء علامة الصّليب . كانت الأرض مغطّاة بطبقة سميكة من التّراب ممّا جعل كثيرًا من آثار الأحذية الّتي وطئتها واضحة عليها ، وكان أحدها أكثر وضوحًا لقرب عهده . أمّا الشّيء الّذي لفت أنظارهم أكثر من غيره فقد كان الرّائحة النّفّاذة ، إذ لم يكد جوناثان يشمّها حتّى قال : « إنّها نفاسته . إنّي أذكر رائحته جيّدًا . »

ووقعت أنظارهم على الفور على الشّيء الّذي جاءوا من أجله . فقد كانت صناديق التّراب مرصوصة بجوار الجدار واحدًا فوق الآخر . ولكن كم كان عددها ؟ لقد أظهر الحصر العاجل أنّ تسعة وعشرين فقط كانت هناك ، وذلك من الخمسين صندوقًا .

وحرّك فان هيلسينغ رأسه بسبب حافت ، ثمّ قال : « إنّ العدوّ لايزال متقدّمًا علينا . »

ثُمَّ بَدَأَ يُعِيدُ عَدَّ الصَّنادِيقِ : « إِثْنانِ وَعِشْرُونَ ، ثَلاثَةٌ وَعِشْرُونَ .. »

ثُمَّ تَوَقَّفَ إِذْ كانَ آرْثَر يَجْذِبُ ذِراعَهُ لِيُنَبِّهَهُ إِلى شَيْءٍ ما ، وَقالَ آرْثَر : « أَلا تُلاحِظُ أَنَّ الْمَكانَ أَقَلُّ إِظْلامًا مِمّا كانَ ؟ »

تَوَقَّفُوا جَمِيعًا عَنِ الْعَدِّ وَتَطَلَّعُوا حَوْلَهُمْ . كانَ كُلُّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِ الْمَبْنَى مُمْتَلِئًا بِما يُشْبِهُ نُقَطًا مُرِيبَةً حَمْراءَ ، ثُمَّ كانَتْ هُناكَ تَحَرُّكاتٌ صَغِيرَةٌ صَحِبَتْها أَصْواتٌ خَفِيفَةٌ وَوَقَفَ الْجَمِيعُ يُحَدِّقُونَ فَتْرَةً قَصِيرَةً ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ فَهِمُوا كُلَّ شَيْءٍ . كانَتِ الْكَنِيسَةُ تَمُوجُ بِمِئاتٍ بَلْ بِآلافِ الْجُرْذانِ . وَجَرَى الْجَمِيعُ نَحْوَ الْبابِ ، وَلٰكِنَّ الْجُرْذانَ جَرَتْ نَحْوَهُمْ . كانَتْ هُناكَ جُرْذانٌ تَحْتَ أَقْدامِهِمْ ، وَجُرْذانٌ تَجْرِي فَوْقَ أَقْدامِهِمْ ، وَجُرْذانٌ تَتَسَلَّقُ فَوْقَ سَراوِيلِهِمْ ، وَجُرْذانٌ في شَعْرِ رُؤُوسِهِمْ . أَمّا الْجُرْذانُ السِّمانُ الطِّوالُ فَقَدْ تَعَلَّقَتْ بِأَسْنانِها في مَلابِسِهِمْ ، وَكُلَّما نَفَضُوها عَنْهُمْ حَلَّ مَحَلَّها الْمَزِيدُ وَالْمَزِيدُ ، وَكانَتْ عُيُونُها تَلْمَعُ في الظَّلامِ .

وَبَعْدَ لَأْيٍ اسْتَطاعُوا أَنْ يَبْلُغُوا الْبابَ ، وَمَعَ أَنَّهُمْ شَعَرُوا بِالْأَمانِ في الْخارِجِ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَنْطَلِقْ لِسانُهُ بِكَلِمَةٍ إِلّا بَعْدَ مُضِيِّ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ . وَأَخِيرًا قالَ فان هِيلْسِينْغ . « عِنْدَما نَعُودُ غَدًا فَمِنَ الْخَيْرِ أَنْ يُحْضِرَ آرْثَر كِلابَهُ مَعَهُ »

فَصاحَ سِيوارْد : « غَدًا ؟ إِنَّنِي لا أُرِيدُ الْعَوْدَةَ إِلى هُنا أَبَدًا . »

فَرَدَّ فان هِيلْسِينْغ « إِنَّنا مُضْطَرُّونَ إِلى الْعَوْدَةِ رِضًى أَمْ كُرْهًا لا بُدَّ أَنْ نُدَمِّرَ الصَّنادِيقَ . »

وَفي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَكُنْ فان هِيلْسِينْغ يُفَكِّرُ في الصَّنادِيقِ الَّتِي يَعْتَزِمُونَ تَدْمِيرَها ، وَإِنَّما الَّذِي كانَ يُقْلِقُهُ هُوَ الصَّنادِيقُ الَّتِي لَيْسَتْ هُناكَ . إِذْ واحِدًا وَعِشْرِينَ صُنْدُوقًا قَدْ نُقِلَتْ مِنْ كارْفاكْس وَلا بُدَّ مِنَ الْعُثُورِ عَلَيْها .

الفصلُ السَّادسَ عشَرَ

بينما الرجالُ الأربعةُ جالسونَ حولَ المائدةِ يتناولونَ طعامَ الإفطارِ قالَ هيلسينغ : « واحدٌ وعشرونَ صندوقًا مفقودةٌ ، ومنَ المحتملِ أنْ تكونَ في أيِّ مكانٍ . »

فقالَ آرثر : « إنَّ واحدًا وعشرينَ صندوقًا تؤلِّفُ حِملًا كبيرًا ، فإذا كانتْ قدْ نُقلتْ نهارًا فمنَ المحتملِ أنْ يكونَ بعضُ الذينَ في المستشفى قدْ لاحظوا نقلَها . ومعَ ذلكَ فإنَّ كارفاكس قريبةٌ جدًّا ، ولا بُدَّ أنَّ الصناديقَ نُقلتْ خلالَ الأسابيعِ الثلاثةِ الأخيرةِ . »

وفجأةً وضعَ الدكتور سيوارد فنجانَ الشاي بعجلةٍ على المائدةِ وسارعَ بالخروجِ منَ الحجرةِ ، ثُمَّ عادَ بعدَ لحظاتٍ وفي يدهِ قصاصةُ ورقٍ ، والدهشةُ تعلو وجوهَ أصدقائهِ ، وصاحَ : « كانَ ينبغي ألَّا يفوتني التفكيرُ في ذلكَ منْ قبلُ ... عُثرَ في تقريرِ دكتور هيبسي . » ثُمَّ قصَّ عليهمْ قصةَ مهاجمةِ رينفيلد لحمَّالَيْ عربةِ النقلِ ، وكيفَ أنَّ دكتور هيبسي احتاطَ للأمرِ فسجَّلَ اسمَيْهما خشيةَ أنْ تحدثَ متاعبُ معَ الشرطةِ فيما بعدُ . ثُمَّ قالَ :

« وها هما الاسمانِ ، توماس سنيلينغ ، وجوزيف سموليت . ولا بُدَّ أنَّ رينفيلد قدْ عرفَ أنَّهما كانا ينقلانِ دراكولا في أحدِ هذهِ الصناديقِ . »

وقدْ أحسَّ قائدُ هيلسينغ بارتياحٍ حينما سمعَ الخبرَ الذي جاءَ بهِ الدكتور سيوارد ، وبدأَ يضعُ الخططَ منْ جديدٍ . وبناءً على الخطةِ ذهبَ جوناثان إلى لندن ليبحثَ عنْ حمَّالَيْ عربةِ النقلِ ، والاهتداءِ إلى المكانِ الذي نقلا إليهِ الصناديقَ . أمَّا الثلاثةُ الآخرونَ فقدْ عادوا إلى كارفاكس . ولمْ يكنِ المكانُ في ضوءِ النهارِ مرعبًا كما كانَ بالأمسِ ، ولمْ تكنْ هناكَ حاجةٌ إلى الكلابِ التي أحضرَها آرثر معهُ ليبعدَ الجرذانَ ، إذْ لمْ يكنْ هناكَ أيٌّ منها ، ولا كانتْ هناكَ أيَّةُ جثةٍ في أيٍّ منَ الصناديقِ . ولذلكَ كانَ منَ السهلِ على البروفيسور أنْ يفتحَ كلَّ صندوقٍ ويضعَ في داخلهِ قطعةً منَ الخبزِ المقدسِ . ومعنى هذا أنَّهُ لنْ يستطيعَ مصاصُ دماءٍ أنْ يستقرَّ فيها بعدَ ذلكَ .

لمْ تكنْ مينا في صحةٍ طيبةٍ ، وكانتْ تبدو شاحبةَ الوجهِ وهيَ تجلسُ لتناولِ

الإفطارِ في الوقتِ الذي عادَ فيهِ الرجالُ . وفيما بعدُ ، قامتْ بجولةٍ في المستشفى معَ الدكتور سيوارد ، وكانَ يروي لها قصةَ رينفيلد التي أثارتِ اهتمامَها ، حتَّى بلغا حجرتَهُ فدخلاها معَ الطبيبِ . كانَ رينفيلد يبدو هادئًا ، بلْ لقدْ كانَ ودودًا أيضًا في هذا اليومِ ، وبدا عليهِ أنَّهُ معجبٌ بمينا التي استأذنَ الطبيبَ في أنْ تقضيَ معهُ بعضَ الوقتِ ليتحدثَ إليها . وبعدَ ظهرِ ذلكَ اليومِ كانَ دكتور سيوارد مشغولًا بعملهِ ، كما كانَ البروفيسور مشغولًا بقراءةِ كتابٍ في الحديقةِ ، أمَّا آرثر فقدْ أخذَ كلابَهُ في جولةٍ بتربُّصٍ . وفيما بعدُ ، وصلتْ برقيةٌ منْ جوناثان يقولُ فيها إنَّهُ لمْ ينتهِ منْ تحرياتهِ بعدُ ، وإنَّهُ قرَّرَ أنْ يقضيَ الليلَ في لندن . وبعدَ أنْ قضى الآخرونَ أمسيةً طيبةً مجتمعينَ ، انصرفوا إلى مضاجعهمْ واحدًا بعدَ الآخرِ . ولكنْ يبدو أنَّ هذا اليومَ الذي انقضى هادئًا لمْ يُعِدَّهمْ الإعدادَ الكافيَ لمواجهةِ الليلةِ التي كانتْ تنتظرُهمْ . ففي الدقيقةِ العشرينَ بعدَ منتصفِ الليلِ استيقظَ قائدُ هيلسينغ على صيحةٍ مرعبةٍ . وبينما هوَ يرتدي بعضَ ثيابهِ سمعَ وقعَ قدمِ شخصٍ يجري في الدهليزِ نحوَ حجرةِ الدكتور سيوارد . وتبيَّنَ أنَّهُ الحارسُ الليليُّ جاءَ يعلنُ أنَّ رينفيلد قدْ أُصيبَ . وحينما وصلَ الطبيبانِ إلى حجرةِ رينفيلد شاهداهُ ممدَّدًا على الأرضِ ، وأنَّهُ وُجِّهتْ إلى رأسهِ ضربةٌ شديدةٌ هشَّمتْ عظمةَ الرأسِ ، فحملاهُ إلى الداخلِ وكانَ الرجلُ لا يزالُ حيًّا ، ولكنَّهُ يتنفسُ بصعوبةٍ .

ثُمَّ قالَ هيلسينغ : « أحضرْ حقيبتَكَ . لا بُدَّ أنْ نتخلصَ منَ الضغطِ الذي تحدثُهُ العظمةُ المكسورةُ . لا بُدَّ أنْ نقصَّها فورًا وإلَّا فإنَّهُ سيموتُ . »

فردَّ سيوارد : « سوفَ يموتُ لا محالةَ . لقدْ كانتِ الضربةُ في غايةِ العنفِ . لا يمكنُ أنْ تكونَ الإصابةُ نتيجةَ مجردِ سقوطٍ . »

ثُمَّ قالَ هيلسينغ وهوَ يحلقُ الشعرَ الملوثَ بالدمِ لينظفَ المكانَ الذي سيحدثُ فيهِ القصَّ : « إذا أمكنَهُ أنْ يخبرَنا بما حدثَ لهُ فربَّما كانَ هذا عونًا لنا . »

وقدْ نجحتْ محاولاتُ الطبيبِ وظهرتْ نتائجُها في الحالِ ، إذِ انفتحتْ عينا رينفيلد وبدأتْ شفتاهُ تتحركانِ ، ثُمَّ قالَ : « لقدْ جاءَ . »

فقالَ سيوارد : « استمرَّ . »

فمَضى يَقولُ : « .. منْ جلالِ الأَبديةِ في الصَّباب ، بيْنما جاءَ في اللَّيلةِ الماضيةِ . وعرفْتُ أنَّهُ يسْعى إلى دمي . لقدْ كانَتِ السَّيِّدةُ هاركر صبيَّةً معي ، وَ كانَ يَسْعَى إلى دمها ، وَ حاولْتُ أنْ أمْنعهُ فطرَحني أرْضًا . »

وَ خفتَ صوتُ رينفيلد المِسْكينِ حتَّى أصبَحَ منَ الصَّعْبِ سماعُهُ ، ثُمَّ سكَتَ بَعْدَ ذلكَ .

وجَسَّ دُكْتور سيوارْد نَبْضَهُ ... لَقَدْ ماتَ !

لم ينْبِسْ أيٌّ من الطَّبيبيْنِ بكَلِمةٍ ، وَإنَّما آنْدفعا إلى الطَّابقِ العُلْويِّ حيْثُ آلْتقيا في طريقهما بآرْثر ، وَ آتَّجهوا مُباشرةً إلى حُجْرةِ مينا . و توقَّفوا عنْدَ بابها وَ أنْصتوا ، وَ كانَ كُلُّ شَيْءٍ هادئًا في داخلِ الحُجْرةِ ، فهلْ كانَ منَ الحِكْمةِ أنْ يَثِقوا بما فاهَ به رَجُلٌ مخبولٌ في لَحْظةِ آحْتضارِهِ ؟

وَ قالَ هِلْسينغ وَ هُوَ يُحاوِلُ فتْحَ الباب في حذرٍ وَ رفقٍ : « إنَّها مسْألةُ حياةٍ أوْ مَوْتٍ . »

كانَ البابُ مُوصَدًا ، فآندَفعَ آرثر على الفَوْرِ وَ ألْقى بجسْمِهِ عليْهِ بكُلِّ ما يمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ ، فآنْفتَحَ البابُ عَلى مِصْراعَيْهِ مِمَّا أدَّى إلى أنْ يَهْوِيَ البروفيسور عَلى الأرْضِ وحين نَهَضَ عَلى رُكْبتيْهِ وَقعتْ عَيْنُهُ على مَنْظرٍ جَمَّدَ الدَّمَ في عُروقِهِ ، وَظلَّ لَحْظةً لا يَسْتَطيعُ أنْ يرْفعَ نفْسَهُ عنِ الأرْضِ .

كانَ دراكولا واقِفًا ، وَكانَ ظَهْرُهُ مُسْتَنِدًا إلى الجِدارِ الَّذي في أقْصى الحُجْرةِ ، وَ كانَ يُمْسِكُ بمينا لَصيقةً بِهِ ، وَ ذِراعُهُ اليُمْنى تَقْبِضُ عَلى رَأْسِها وَ تَدْفَعُ بِهِ نَحْوَ صَدْرِهِ . كانا يَبْدوانِ لِأَوَّلِ وَهْلةٍ كَأنَّهُما عاشِقانِ . وَلكِنَّ فان هيلسينغ لَمَحَ جُرْحًا مَفْتوحًا في عُنُقِ مَصَّاصِ الدِّماءِ ، وَ خَطًّا رَفيعًا مِنَ الدَّمِ يَسيلُ على صَدْرِهِ . كانَ دراكولا يَضْغَطُ عَلى وَجْهِ مينا إلى أَسْفَلَ فَوْقَ صَدْرِهِ لِيُرْغِمَها عَلى أنْ تَشْرَبَ مِنْ دَمِهِ كَما يُرْغِمُ المَرْءُ قِطًّا صَغيرًا عَلى شُرْبِ اللَّبَنِ

وَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ ، أنَّ دراكولا قَدْ أخَذَتْهُ المُفاجَأةُ كَما أخَذَتْهُمْ ، فَقَدْ كانَتْ عَيْناهُ تَبْدوانِ كَدائِرَتَيْنِ مِنْ نارٍ ، بَيْنَما كانَ فَمُهُ مَفْغورًا ، و بادَرَ إلى إلْقاءِ مينا عَلى السَّريرِ وَ قَدِ



احمرّ وجهها وقميص نومها مما علق بها من دماء . وفي اللحظة التي كان يتأهب فيها لكي يقفز كان فان هيلسينغ قد تمكن من الوقوف على قدميه ورفع الصليب في يده ووجهه نحو دراكولا ، واقتدى به كل من سيوارد وآرثر بصليبيهما . أما مصاص الدماء فقد أطلق صرخة ، وفي اللحظة نفسها تسللت ضبابة إلى الحجرة وخيمت عليها ، ولم تكد تنقشع حتى كان الكونت قد ذهب .

وانقضت ساعة قبل أن تستعيد مينا قدرتها على الكلام ، إذ كانت الصدمة التي أصابتها شديدة . قالت مينا : « لقد كان أشبه بحلم .. حلم رأيته في الليلة السابقة كنت على وشك أن يدركني النعاس حينما ظهر إلى جواري رجل لامع العينين ، ووضع يديه عليّ . فحاربت قوي كلها . ثم . » وبدا كأنما تعاني مشقة في الاستمرار في كلامها ثم قالت : « ثم فتح قميصه ، وأنشب أظافره في عنقه فأحدث جرحا نزفت دماؤه ، وجعلني أشرب من دمه . وبينما كنت أشرب ، وكان ذلك رغما عني ... بينما كنت أشرب . قال . » ثم توقفت .

فقال فان هيلسنغ : « حاولي الاستمرار يا عزيزتي . »

فمضت تقول . « قال : الآن أصبحنا ولنا دم واحد ، وعقل واحد . لقد ساعدت أعدائي ، ولكنك سوف تساعدينني عاجلا . »

لم يتكلم أحد ، إذ ماذا يمكن أن يقولوا ليساعدوها ؟ ومضت مينا تقول والدموع تنهمر من عينيها ، وهي تمسك بيدي فان هيلسينغ : « ولكن هل صحيح يا بروفيسور ؟ هل سأظل أسيرة لدراكولا مرتبطة به إلى الأبد ؟ وحينما أموت ، ألابد أن أصبح واحدة من هؤلاء ؟ »

فرد فان هيلسينغ وهو يبدو أكبر سنا وأشد بياض شعر مما هو : « يا بنتي ، إنك مع أصدقاء يضحون بحياتهم لكي تكوني آمنة . لقد تهاونا في الحماية عليك ، ولكننا لن نتهاون بعد الآن . إذا كان دراكولا يظن أنه كسب شيئا في هذه الجولة فهو مخطئ . لقد كان لدينا من قبل سبب كاف يدفعنا لتدميره ، أما الآن فإن هذا السبب أصبح أقوى مما كان ألف مرة . »

الفصل السابع عشر

عاد جوناثان في الصباح التالي وهو يشعر — على غير العادة — بالرضا عن نفسه ، فقد هدى إلى ثلاثة أماكن أرسلت إليها الصناديق . خمسة منها أرسلت إلى مايل إند في شرق لندن ، وسبعة إلى وولوارث في جنوب لندن ، وتسعة إلى رقم ١١٨ في بيكاديللي ، كانت وجوه أصحابه الحزينة التي قابلوه بها في المستشفى تنم عن أمر ما . مما جعله مستعدا لتلقي الأخبار السيئة عن مينا . ومع ذلك فقد وقع الخبر عليه وقع صاعقة ، إلا أن مينا نفسها كانت في غاية الشجاعة لفقد كل ما كان قد استردّته من قوة في الجسم والعقل في الأسابيع القليلة الماضية .

كان الاجتماع الذي عقده الأصدقاء في مكتب الطبيب لقاء غير سعيد . لقد حدث تغير في اللعبة . فمن قبل ، ربما كان يكفي أن تدمر الصناديق ، ويضطر دراكولا إلى مغادرة إنجلترا ، أما الآن فقد أصبح من الضروري أن يدمر دراكولا نفسه إذا أريد إنقاذ مينا . فقد شربت من دم مصاص الدماء ، ولا يعلم أحد منهم متى يبدأ الشر ويقع البلاء .

ولكنهم — على الأقل — كانوا يعلمون الآن إلى أين نقلت الصناديق ، وإذا لم يكن دراكولا قد قام بتوزيعها حول لندن — مرة أخرى — فمن الممكن تدميرها . ولكن الدكتور سيوارد أثار أول مشكلة ، إذ قال : « كيف نتمكن من دخول المنازل التي بها الصناديق ؟ »

فرد جوناثان متسائلا : « كيف تمكن الكونت من دخولها ؟ نحن نعلم أن له أساليبه في الدخول . ولكنه — عادة — يستخدم مفاتيح . ولا بد أنه يحتفظ بهذه المفاتيح في مكان ما . ومنزل بيكاديللي يقع في وسط لندن . ولو كنت مكانه لاحتفظت بالمفاتيح فيه . »

فقال الطبيب . « هذا صحيح . ولكن لا يزال علينا أن ندخل هذا المنزل . وليس

مِنَ السَّهْلِ أَنْ تَتَسَلَّلَ إِلى مَنْزِلٍ كَبيرٍ كَهٰذا يَقَعُ في حَيٍّ مأهولٍ مِنْ أَحْياءِ لَنْدَن ، وَفي ضَوْءِ النَّهارِ ، دونَ أَنْ يَبْلُغَ أَحَدَ الشُّرْطَةِ . »

وَكانَ الرَّدُّ عِنْدَ آرْثَر الَّذي قالَ : « اُتْرُكوا لي هٰذِهِ المُهِمَّةَ . كُلُّ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ هُوَ مَجْموعَةٌ مِنَ الثِّيابِ الثَّمينَة . »

فَنَظَروا إِلَيْهِ مَدْهوشينَ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَلْفِظْ بِكَلِمَةٍ ، وَإِنَّما كانَ يَبْدو وَهُوَ مُتَأَكِّدٌ تَمامًا أَنَّ البْروفيسور قَرَّرَ أَنْ يَثِقَ في خُطَّتِهِ أَيًّا كانَتْ هٰذِهِ الخُطَّةُ . وَلٰكِنْ بَقِيَتْ هُناكَ صُعوبَةٌ واحِدَةٌ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَتْرُكوا مينا في رِعايَتِه .

فَسَأَلَتْ مينا : « وَلِماذا لا أَصْحَبُكُمْ إِلى لَنْدَن ؟ »

فَقالَ البْروفيسور : «لِأَنَّ العَمَلَ الَّذي نَقومُ بِهِ لَنْ يَكونَ مِنْ نَوْعِ العَمَلِ الَّذي تَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَهُ النِّساءُ . »

فَقالَتْ مينا : « بْروفيسور ، إِنَّ الَّذي رَأَيْتُ مِنْ قَبْلُ ، وَالَّذي عانَيْتُ مِنْ قَبْلُ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ نَوْعِ العَمَلِ الَّذي تَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَهُ النِّساءُ ، وَلٰكِنِّي رَأَيْتُهُ وَعانَيْتُهُ . إِنِّي ذاهِبَةٌ مَعَكُمْ ، وَسَوْفَ تَرى أَنَّني لَنْ أَخافَ . »

وَفي هٰذِهِ المَرَّةِ لَمْ يَكُنْ لَدى ڤان هيلْسينْغ ما يُجيبُ بِهِ ، وَذَهَبَتْ مينا مَعَهُمْ .

عِنْدَما اقْتَرَبوا مِنْ لَنْدَن ارْتَدى آرْثَر المَلابِسَ الثَّمينَةَ ، وَبَدا كَأَنَّهُ ابْنُ لورد ، ثُمَّ غادَرَ المَحَطَّةَ وَحْدَهُ في عَرَبَةٍ ، وَقالَ لَهُمْ وَهُوَ يَتْرُكُهُمْ : « أَمْهِلوني ساعَةً واحِدَةً فَقَطْ . »

وَبَعْدَ مُضِيِّ السّاعَةِ تَمامًا كانَ ڤان هيلْسينْغ وَسيوارْد يَسيرانِ إِلى بيكاديللي ، وَعَلى بُعْدِ أَرْبَعينَ مِتْرًا خَلْفَهُما سارَ جوناثان وَمينا كَأَنَّهُما لا يَعْرِفانِهِما . وَحينَما مَرَّ البْروفيسور وَسيوارْد بِالمَنْزِلِ رَقْم ١١٨ أَخَذَتْهُما الدَّهْشَةُ إِذْ رَأَيا أَنَّ البابَ نِصْفُ مَفْتوحٍ وَشاهَدا أَحَدَ العُمّالِ يَقومُ بِعَمَلٍ ما في القُفْلِ . فَتَوَقَّفا وَتَظاهَرا بِأَنَّهُما يَتَأَمَّلانِ في مَعْروضاتِ أَحَدِ

مَتاجِرِ المُجاوِرَةِ ؛ لِكَيْلا يَلْفِتا إِلَيْهِما الأَنْظارَ . وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ جوناثان وَمينا فُتِحَ بابُ المَنْزِلِ كامِلًا ، وَظَهَرَ آرْثَر مِنَ الدّاخِلِ فَأَعْطى العامِلَ بَعْضَ النُّقودِ ، ثُمَّ حَمَلَ العامِلُ حَقيبَتَهُ وَانْصَرَفَ .

وَالْتَقى الجَميعُ داخِلَ المَنْزِلِ فَأَغْلَقوا البابَ ، وَوَقَفوا في البَهْوِ يَتَحَدَّثونَ . وَوَجَّهَ البْروفيسور سُؤالَهُ إِلى آرْثَر : « كَيْفَ تَأَتّى لَكَ أَنْ تَفْعَلَ هٰذا ؟ »

فَابْتَسَمَ آرْثَر وَقالَ : « ذَهَبْتُ إِلى حانوتٍ لِبَيْعِ الأَقْفالِ ، وَقُلْتُ إِنَّ خادِمي الأَحْمَقَ سافَرَ وَمَعَهُ كُلُّ مَفاتيحي وَإِنِّي لا أَسْتَطيعُ دُخولَ مَنْزِلي ، وَسَأَلْتُهُمْ ما إِذا كانوا يَسْتَطيعونَ فَتْحَ بابِهِ ، فَأَرْسَلوا أَحَدَ عُمّالِهِمْ مَعي . حَقيقَةً لَقَدْ كانَ الأَمْرُ في غايَةِ السَّذاجَة . »

فَسَأَلَ سيوارْد : « وَلٰكِنْ ... أَلَمْ يَسْأَلوكَ عَمَّنْ تَكونُ ؟ »

فَأَجابَ آرْثَر : « إِنَّهُم في لَنْدَن يُصَدِّقونَ الرَّجُلَ الَّذي يَلْبَسُ ثِيابًا أَنيقَةً ما دامَ يَبْدو واثِقًا مِنْ نَفْسِهِ . »

وَهٰكَذا شَرَعوا يَبْحَثونَ في الطّابَقِ الأَرْضِيِّ حَتّى وَجَدوا الصَّناديقَ في حُجْرَةٍ خَلْفِيَّةٍ كَريهَةِ الرّائِحَةِ ، وَقالَ ڤان هيلْسينْغ : « تِسْعَةٌ ! الحَمْدُ لِلّٰهِ ، فَإِذا كانَ الكونْت في واحِدٍ مِنْ هٰذِهِ فَلَنْ نَكونَ في حاجَةٍ إِلى الاِسْتِمْرارِ في البَحْثِ . »

وَتَرَكَ البْروفيسور الآخَرينَ لِيَقوموا بِفَتْحِ الصَّناديقِ ، وَصَعِدَ هُوَ إِلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ حَيْثُ الحُجْرَةُ الكُبْرى الَّتي تُطِلُّ عَلى الشّارِعِ . وَكانَ في وَسَطِ الحُجْرَةِ مِنْضَدَةٌ عَلَيْها فُرْشاةُ شَعْرٍ ، وَفُرْشاةُ مَلابِسَ ، وَصَحْنٌ قَديمٌ بِهِ قَليلٌ مِنَ الماءِ . وَبَدا كَما لَوْ كانَ الماءُ قَدِ اسْتُخْدِمَ في إِزالَةِ دَمٍ . وَكانَ هُناكَ مِفْتاحانِ أَيْضًا . فَأَخَذَهُما وَهَبَطَ إِلى الطّابَقِ الأَرْضِيِّ في نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتي كانوا يَفْتَحونَ فيها الصُّنْدوقَ الأَخيرَ . وَتَبَيَّنَ أَنَّ دراكولا لَمْ يَكُنْ في أَيٍّ مِنَ الصَّناديقِ التِّسْعَةِ ، وَلٰكِنَّ ڤان هيلْسينْغ لَمْ يَكُنْ في الحَقيقَةِ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَكونَ مَحْظوظًا إِلى هٰذِهِ الدَّرَجَةِ ، وَكانَ في جُعْبَتِهِ خُطَطٌ أُخْرى

قال البروفيسور: «حسنًا، سوف نذهب إلى منزل إيد، أمّا آرثر وجوناثان فيذهبان إلى ووبارت، وهاكم المفتاحين، ولا تنسوا أن تتوقفوا في الطريق عند الفندق الذي أنزل فيه لكي تأخذوا الحقيبتين اللتين تحتويان على كلّ ما تحتاجون إليه في مهمتكم. أمّا مينا وأنا فسنبقى هنا، وحاولوا أن تعودوا إلى هنا قبل حلول الظلام.»

انصرف الرجال الثلاثة وبقي ڤان هيلسينغ ومينا في المنزل وحدهما، فصعدا إلى الطابق العلوي، وجلسا إلى النافذة يتطلعان إلى الشارع المزدحم. وكانا يحاولان ألّا يفكرا في الصناديق التي في الطابق الأرضي، أو في الماء المصبوغ بالدم فوق المنضدة خلفهما، أو في أنفاس مصّاص الدماء التي كانت تسري في الهواء

كانا يعلمان أنهما في أمان في النهار، ولكن ما إن ظهرت بوادر المساء، وفقد النهار إشراقه حتى بدأ ڤان هيلسينغ ينتابه القلق خشية أن الأصدقاء تأخروا وأن دراكولا الغاضب الثائر عاد إلى المنزل في قوته وجبروته

وفي حوالى الساعة السابعة كانت هناك طرقات عنيفة على الباب الأمامي، وتبيّن أنه جاك سيوارد الذي قال إنه وجد المنزل والصناديق الخمسة، ولكن لم يكن دراكولا في أيٍّ منها كذلك.

ومرّت نصف ساعة، وأخذت الظلمة تزحف رويدًا رويدًا، وقبيل أن يعمّ الظلام المكان إذا بالباب يُطرق ثانية، ودخل آرثر وجوناثان. ولكن لا أثر لدراكولا. لقد وجدا ستة صناديق خالية، أمّا السابع فمفقود. يا لها من أخبار سيئة! إنّ عدوهم لا يزال طليقًا، وأمّا المكان الذي يختبئ فيه فإنه لا يزال مجهولًا

قال ڤان هيلسينغ: «ولكنه يعلم أنه في مأزق، وسوف يزور صناديقه، وأعتقد أنه سيأتي في وقت ما الليلة إلى هنا، وينبغي أن نكون مستعدين له. إنّ فرصتنا في قتله ليست كبيرة، ولكن لابدّ أن ننتهزها إذ ربما لا تُتاح لنا فرصة أخرى.»

وطال انتظارهم في الحجرة الخلفية ثلاث ساعات قبل أن يطرق أسماعهم صوت المفتاح في الباب الأمامي، وحان الوقت ليأخذوا أهبتهم. كان ڤان هيلسينغ يقف مواجهًا الباب، وآرثر إلى يمينه، وسيوارد إلى يساره، ووقفت مينا في أحد أركان الحجرة. أمّا جوناثان فكان يقف خلف الباب ممسكًا بالسكين الهندي الطويل الذي كان يدّخره لهذه اللحظة

وسمعوا وقع أقدام خفيفة في الردهة. ومضت لحظة سكون، وفجأة انهوى الباب كلّه وسقط، وانتصب دراكولا في الحجرة بينهم. أهوى عليه جوناثان بطعنة، ولكن دراكولا كان أسرع فقفز إلى أحد الجوانب كما يقفز القط، فلم يصب السكين إلا سترته محدثًا فيها ثقبًا واسعًا. وتساقطت النقود الورقية والذهبية التي كانت فيها، وعندما كان ڤان هيلسينغ يتقدّم منه والصليب في يده أخذ وجه الكونت يتحوّل إلى صفرة مخضرّة

وفي اللحظة التي كان جوناثان يتأهّب فيها لطعنة ثانية وثب الكونت فألقى بنفسه تحت ذراعه التي تحمل السكين متحاشيًا الضربة، والتقط في طريقه حفنة من النقود التي على الأرض، ثم اندفع قاذفًا بنفسه من النافذة

وحين سمع الأصدقاء صوت تهشّم الزجاج ورنين بعض الذهب الذي سقط، أسرعوا إلى النافذة في الوقت المناسب لكي يروا دراكولا ينهض متثاقلًا في الممرّ الذي يقع خلف المنزل، ويلتفت إليهم وهو يصيح:
«إنكم تأملون تدميري. إنكم تظنون أنكم تركتموني بلا مأوى أستريح فيه، ولكن ...ي المربد. إنّ مهمتي لم تبدأ إلا الآن. الآن فقط، وإنّ الوقت في صالحي.»

ثم أشار بإصبع غطّاه الشعر إلى مينا قائلًا: «إنها أصبحت ملكي، وسوف أدمّركم كلّكم.»

ثُمَّ انْطَلَقَ يَعْدو بَيْنَ طَيّاتِ الظَّلامِ ، وَبَعْضٌ مِنَ العُمْلَةِ الذَّهَبِيَّةِ يَتَساقَطُ مِنْهُ فَيُحْدِثُ رَنينًا .

وَقالَ البْروفيسور : « إِنَّهُ يَنْطِقُ بِكَلِماتٍ حَماسِيَّةٍ شُجاعَةٍ ، وَلٰكِنَّ الواقِعَ أَنَّهُ يَخْشانا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ فَفيمَ هٰذِهِ العَجَلَةُ المَحْمومَةُ ؟ وَفيمَ هٰذِهِ الحاجَةُ — الَّتي تَبْدو مُلِحَّةً — إِلى كُلِّ هٰذِهِ النُّقودِ ؟ »

قالَ دُكْتور سيوارْد : « وَمَعَ هٰذا يابْروفيسور فَإِنَّهُ لايَزالُ يَمْلِكُ مَكانًا لِلاسْتِراحَةِ لا نَعْلَمُ أَيْنَ هُوَ . إِنَّهُ يَزْدادُ خِبْرَةً بِمُرورِ الوَقْتِ هَلْ هُوَ حَقيقَةً في حاجَةٍ إِلى كُلِّ هٰذِهِ الصَّناديقِ التُّرابِيَّةِ ؟ حينَما غادَرَ ترانْسيلْفانْيا كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ في حاجَةٍ إِلَيْها فِعْلًا ، وَلايَزالُ يَعْتَقِدُ ذٰلِكَ الآنَ . وَلٰكِنْ مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ لَدَيْهِ القُدْرَةَ عَلى إِيجادِ أَماكِنَ جَديدَةٍ لِلاسْتِراحَةِ . فَما مَوْقِفُنا مِنْهُ الآنَ ؟ قَدْ نَكونُ مَهْزومينَ أَمامَهُ ، وَقَدْ يَلْجَأُ إِلى الاخْتِفاءِ سَنَواتٍ ، وَفي خِلالِ هٰذِهِ السَّنَواتِ مَنْ يَدْري ؟ ؟ »

وَأَدْرَكَ الباقونَ تَمامًا ماذا كانَ يَعْني بِهٰذِهِ العِبارَةِ الأَخيرَةِ ما الَّذي سَيُصيبُ مينا ؟ هَلْ مِنَ المُسْتَطاعِ حَقًّا إِنْقاذُ مينا ؟



الفصل الثامن عشر

كانت وجبة الإفطار في صباح اليوم التالي وجبة الصمت والسكون، إذ كانوا جميعًا مشغولين بالتفكير: ماذا تكون الخطوة التالية؟

ونزلت مينا إليهم متأخرة، فبادرها دكتور سيوارد بالسؤال: «كيف حالك اليوم يا مينا؟»

فأجابت: «متعبة قليلًا. لقد رأيت أحلامًا كثيرة في الليلة الماضية.»

فسأل الطبيب الذي كان دائمًا يرى أن للأحلام أهميتها: «أحلامًا شائقة؟»

فتبسمت مينا وقالت: «ليست شائقة في الواقع، فقط مختلفة. لقد رأيت نفسي كأنما أنا في زورق وأنني أسمع خرير ماء، لا شيء أكثر من هذا. ولكن الحلم ظل يعاودني مرة بعد أخرى.»

فسألها: «حينما هاجمك دراكولا في تلك الليلة، ألم يقل إنك وإياه أصبحتما من دم واحد وعقل واحد؟»

قالت: «شيئًا من هذا القبيل.»

فسأل الطبيب وهو يلتفت إلى فان هيلسينغ: «هل من الممكن بالنسبة لمينا في حالتها الحاضرة، أن تدخل في عقل دراكولا بينما هي نائمة؟»

أجاب البروفيسور: «هذا تفكير له وجاهته.»

فسأل الطبيب: «إذا لم يكن مجرد تفكير له وجاهته بل كان حقيقة واقعة فبماذا تفسر الحلم الذي رأته مينا عن الماء؟»

تدخل جوناثان في الحديث قائلًا: «لماذا احتاج دراكولا إلى كل هذه النقود؟»

أجاب البروفسور: «إنه في حاجة ملحة إليها بدليل أنه توقف يلتقط من الأرض بعضًا منها وهو جارح. هل من الممكن أن يكون دراكولا معتزمًا مغادرة إنجلترا؟»

كان البروفيسور يعبر عما يجول في أذهانهم جميعًا من أفكار. ومضى يقول: «ترى هل بلغنا من النجاح معه أكثر مما تصورت؟ من المؤكد أنه الآن يتملكه الرعب، فهو يرى أنه لم يعد يحس بالأمان في لندن، بعد أن لم يتبق لديه غير صندوق واحد. إنه يعرف أننا نتعقبه، ولذلك يفكر في الهرب عن طريق الماء في سفينة عائدًا إلى موطنه. لا، نحن لم نهزمه بعد. إن المطاردة مستمرة.»

وتساءلت مينا في حزن: «ولكن لماذا؟ أكيد أنه يكفيكم أن تدفعوه إلى الخروج من هذا البلد. فلماذا تعرضون أنفسكم للمزيد من المخاطر بتعقبه في البحر؟»

وأخذ فان هيلسينغ يديها كلتيهما في يده وتطلع في عينيها قائلًا: «يا سيدة مينا، إن لدينا روحًا نريد أن نخلصها من إسارها. منذ أسبوع مضى كان من الممكن أن نكتفي بما قلت، أما الآن فعلينا أن نجده حتى ولو اضطررنا إلى الذهاب إلى الشيطان نفسه.»

فبكت مينا متأثرة بكلماته، بل الرجال أنفسهم أحسوا بالدموع تترقرق في أعينهم ولكن فان هيلسينغ أسرع بردهم إلى جو العمل الذي ينتظرهم فقال لهم: «تذكروا، ليس لدينا دليل حتى الآن على أن ما يراود أفكارنا صحيح. فعلينا أن نبحث عما إذا كانت هناك سفينة غادرت لندن في الليلة الماضية متجهة إلى البحر الأسود، ثم علينا بعد ذلك أن نعرف ما كانت تحمله هذه السفينة.»

ولم يكن من العسير أن يهتدوا إلى هذه المعلومات، فإذا كان دراكولا قد غادر لندن فلابد أن يكون قد ركب سفينة واحدة هي كاثرين التي أقلعت متجهة إلى فارنا في الساعة السادسة صباح ذلك اليوم. وقد ذهب جوناثان في نفس اليوم إلى المكتب المسؤول

عن السفينة وعاد بقصة مثيرة . وفي القصة أن رجلا طويلا نحيلا يرتدي ملابس سوداء زار المكتب في ساعة متأخرة من الليل ، وعرض مبلغا كبيرا من النقود نظير شحن صندوق إلى فارنا . ولم يكن الصندوق معه ، فأخبره الربان أن الوقت قد فات لأن السفينة ستقلع في الساعة الثالثة . ولكن عندما حانت ساعة الإقلاع ظهر في الأفق ضباب كثيف ، واضطرت السفينة إلى الانتظار . وحينئذ عاد الرجل ذو الملابس السوداء وهو يسوق عربة تحمل الصندوق ، وشحنه على ظهر السفينة . ثم انقشع الضباب ، وأقلعت السفينة .

فقال فان هيلسينغ بعد أن انتهى جوناثان من رواية قصته : « يا أصدقائي ، إننا جميعا .. نعم جميعا » وكرر الكلمة وهو ينظر إلى مينا ، واستمر يقول : « سنقوم برحلة . إن هذه السفينة ــ حتى مع الاستعانة بالريح التي يسيطر عليها دراكولا ــ سوف تستغرق ثلاثة أسابيع لكي تصل إلى فارنا ، أما نحن فسوف نأخذ القطار ونستقبله عند وصوله . إن لقاءنا التالي بالكونت يجب أن يكون اللقاء الأخير . »

القسم الخامس
ترانسلفانيا ... مرة ثانية

الفصل التاسع عشر

بدا جوناثان حزينا وهو يغادر القطار في فارنا في أواخر شهر أكتوبر (تشرين الأول) . كان أصدقاؤه قد بذلوا كل جهد لكي يجعلوه يعتقد أن مينا بخير . وكان جميلا أن يفعلوا ذلك ، ولكنه كان يعلم أن البروفيسور والدكتور سيوارد يراقبانها يوميا لكي يعرفا ما قد يطرأ عليها من تغير في أسنانها ، وفي عينيها ، وفي بشرتها . ذلك أن دم مصاص الدماء أشبه بعضة الكلب المسعور ، فهو يحدث تأثيره ببطء ، ولكن أثره أكيد . وليس هناك وسيلة لإنقاذ الضحية التي شربت من دمه إلا بموت مصاص الدماء نفسه .

وكانت هناك تغيرات صغيرة قد بدأت تظهر في نظرتها . وفي بعض الأوقات كانت تظل صامتة صمتا غير طبيعي ، وكان جوناثان يعرف أن هذا الصمت المتكرر يثير القلق في الصبيين . كانت الخطة التي أعدوها بسيطة . فقد دبروا الأمر قبل مغادرتهم لندن لكي ترسل إليهم برقيات تضعهم أولا بأول على تحركات السفينة كاثرين . كما أنهم أبلغوا مكتب السفينة في فارنا أن عليها صندوقا يحتوي على بضائع مسروقة ، واتفق على أنه عندما تصل السفينة سيصعد معهم إلى ظهرها مندوب من المكتب يفتح الصندوق . فإذ تيسر لهم الصعود إلى السفينة فسوف يقتلون دراكولا ، ولن يدعوا أحدا يحول بينهم وبين ذلك .

وقال البروفيسور : « إن الشرطة لن تسبب لنا أية متاعب ، إذ لن يكون هناك جثة . فما إن ندخل الطرف المدبب قلب مصاص الدماء حتى ينحل جسده كله ولن يستطيع أحد أن يثبت أننا قتلنا أحدا . »

في صباح اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر كان الأصدقاء يجلسون في الفندق حيث

تلقوا برقيّة تقول : « تفيد التقارير أنّ السفينة كاثرين في الدردنيل اليوم . »

كان الخبر مثيرًا ، فقد كان يعني أنّ هناك أربعًا وعشرين ساعة تستغرقها السفينة من الدردنيل حتّى فارنا . وكانت البرقيّة مؤرّخة في الرابع والعشرين ، وهذا يعني أنّها ستصل هذا الصباح ، وربّما بعد الظهر ، وأيًّا كانت الحال فإنّها ستصل في ضوء النهار .

ولكن حلّت الساعة الثانية عشرة ولم تصل السفينة كاثرين . وانقضت فترة ما بعد الظهر ولم تكن ثمّة أخبار عنها ، وقيل إنّ هناك ضبابًا في بعض الأماكن ، وقد يكون ذلك سببًا في تأخير وصولها . ولذلك أووا إلى مضاجعهم وهم مبتئسون ، على أن يتناوب الرجال السهر واحدًا بعد الآخر طول الليل في ترقّب .

وفي هذه الليلة رأت مينا في منامها الماء كذلك ، وفسّر المنام بأنّ دراكولا — على الأقلّ — لايزال على ظهر السفينة .

ومرّ اليوم السادس والعشرون كما مرّ سبقه ، ولكن في الساعة الخامسة بعد الظهر وصلت برقيّة أخرى تقول : « تفيد التقارير أنّ السفينة كاثرين تدخل غالاتز في الساعة الواحدة . »

غالاتز ؟ إنّ غالاتز تقع على بعد ثلاثمئة كيلو متر تجاه الشمال على الدانوب ! إنّها أقرب إلى حصن دراكولا منه إلى فارنا بمقدار ثلاثمئة كيلو متر . ماترى ما الّذي حدث ؟

كان آرثر أوّل المتحدّثين فقال : « هناك قطار يغادر إلى غالاتز في الساعة العاشرة مساء الليلة ، إذا أخذنا هذا القطار فإنّنا نستطيع أن نصل في اثنتي عشرة ساعة . »

كان آرثر أحد أولئك الذين يحتفظون بجداول المواصلات في رؤوسهم . وهكذا وصلوا إلى غالاتز في صباح اليوم التالي ، وكان ربّان السفينة الإنجليزيّة الّذي قابلوه متعاونًا معهم إلى حدّ كبير فروى لهم قصّة غريبة . حدّثهم عمّا صادفهم في البحر من حظّ طيّب

على غير العادة إذ كانت الريح مواتية حتّى البحر الأسود . ثمّ حدّثهم عن الضباب الكثيف الّذي خيّم بعد ذلك واستمرّ أيّامًا ، وعندما انقشع الضباب إذا بهم في الدانوب على مقربة من غالاتز ، وبما أنّ الأوراق المتعلّقة بالصندوق تقول « غالاتز ، عن طريق فارنا » فقد كان من البديهيّ حينما يتقدّم شخص لتسلّم الصندوق أن يسلّمه له .

فسأله فان هيلسينغ : « ما اسم هذا الشخص ؟ »

أخذ الربّان يبحث في أوراقه ثمّ قال : « ها هوذا هيلدشايم ، إنّه تاجر . »

شكروا للربّان معاونته الصادقة ، ثمّ غادروا السفينة وذهبوا إلى المدينة يبحثون عن هيلدشايم الّذي أخبرهم أنّه لا يعلم شيئًا عن الصندوق . كلّ ما في الأمر أنّه تلقّى تعليمات من لندن لكي يسلّمه إلى وكيل يدعى بيتر سكيسكي يتعامل مع السلوفاك ، وهم بدورهم ينقلون البضائع من منابع الأنهار ومصابّها إلى غالاتز .

وقصدوا إلى سكيسكي فلم يجدوه في مكتبه أو في بيته . وقال جيرانه إنّهم لم يروه منذ البارحة . وبينما كانوا يتحدّثون إلى الجيران جاء صبيّ يجري لاهثًا وهو شديد الاضطراب ، وقال إنّ سكيسكي وجد ملقًى قرب ساحة الكنيسة وقد مزّق عنقه شرّ ممزّق ، كما لو كان قد نهشه حيوان ضار . وما كاد يتمّ كلامه حتّى هرع الجيران نحو الكنيسة ، وبقي البروفيسور وأصحابه وحدهم .

وقال فان هيلسينغ : « أعتقد أنّ السيّد سكيسكي لن يكون قادرًا على مساعدتنا الآن ، ولكنّنا نستطيع أن نكشف الدور الّذي قام به في تنفيذ خطط دراكولا . إنّ الصعوبة الماثلة أمام دراكولا الآن هي كيف يعود إلى حصنه . فهو يستطيع أن يسافر بطريق برّيّ في عربة أو في القطار ، أو بطريق نهريّ .

« أمّا الطريق البرّيّ فهو بطيء وفيه مخاطر ، وأمّا القطار فهو سريع ولكن يفتقر إلى من يتولّى رعاية الصندوق . ثمّ إنّ التوقّفات في المحطّات قد تكون فيها مخاطر ، والذي

يبدو لي هو أن تعامله مع سكيسكي يشير إلى أنه سافر بطريق النهر . ها هي ذي خريطة ، وأنت ذو خبرة بالإقليم يا جوناثان . فأين تظن أنه قد ذهب ؟ »

ونظر جوناثان إلى الخريطة ولم يكن يعرف هذا الجزء من الإقليم ، ولكنه كان قد تعلم الكثير من كتب الكونت .

كان هناك نهران يصبان في الدانوب من الشمال ، نهر بروث ونهر سيرث . وكان يعلم أن الملاحة في نهر بروث أفضل بالنسبة للزورق ، أما نهر سيرث فهو يلتقي بنهر بيستريتز عند فوندو ، وهو يسير محاذيا لطريق بيستريتز الجبلية ولذلك قال جوناثان « فلنتبع نهر سيرث . »

فقال فان هيلسينغ : « وهو كذلك . وأعتقد أن الخطة التي ينبغي أن ننفذها هي أن يأخذ آرثر وجوناثان زورقا بخاريا إلى منبع النهر ، أما أنت يا جاك فإني أريدك أن تأخذ بعض الجياد وتتبع جسر النهر ، أما أنا ومينا فسوف نأخذ القطار إلى فرستي ، ومن هناك نمضي في طريقنا نحو الحصن فإذا لقيتم دراكولا في الطريق فتصرفوا معه ، أما إذا لم تلقوه فسوف نكون في انتظاركم في الجبال . إنها فرصتنا الأخيرة . »

الفصل العشرون

حينما جاء جوناثان إلى ترانسيلفانيا لأول مرة كان الجو مشمسا ، ومن ثم كان السفر متعة . أما الآن فالدنيا خريف ، والصباح الباكر معتم فوق النهر ، والضباب مخيم في أغلب الأوقات . ولذلك كان جوناثان يسعد بالدفء حينما يفتح صندوق الاحتراق في الزورق البخاري الصغير ويضع فيه مزيدا من قطع الخشب .

وطوال يومين — كان الزورق يسير فيهما ليلا ونهارا — كانا يمران بقليل من الزوارق الصغيرة التي لم يكن حجمها يتسع لحمل صندوق الكونت . ولكن في اليوم الثالث — وحينما كان الزورق يمر خلال نهر بيستريتز — علما من بعض السلوفاك العابرين أن هناك زورقا كبيرا كان يمخر عباب النهر بسرعة غير عادية ، قد مر بهم في اليوم السابق . وقد أحيا هذا الخبر الأمل في نفسيهما . وحينما زادا من سرعة الزورق كان مجرى النهر قد أصبح ضيقا صخريا ، ولم يحتمل الزورق الصخور فأصابه عطب في النهاية ، واستغرق إصلاحه عدة ساعات ، كما أن الطقس بدأ يسوء .

كانا — في ذلك الوقت — على بعد حوالي تسعين كيلو مترا فقط من بيستريتز . وكان آرثر يخشى أن يكون الصندوق قد سبق نقله إلى البر . ولذلك غادرا الزورق عند أول مدينة صغيرة ليستخدما الجياد ، وقررا أن يسيرا بها عبر الطريق الريفية الصغيرة متجهين إلى المكان المحدد للقاء مينا والبروفيسور . ولم يكونا قد شاهدا جاك سيوارد منذ أول يوم غادرا فيه غالاتز ، ولذلك اعتقدا أنه سبقهما على الطريق .

أما البروفيسور ومينا فكانا قد وصلا إلى فرستي في منتصف نهار اليوم الحادي والثلاثين . وكانت هذه المحطة هي نهاية مسار القطار ، ولذلك غادراها ليركبا عربة تأخذهما لمسافة مئة كيلومتر من فرستي إلى طريق بيستريتز الجبلية .

واشترى البروفيسور بعض الطعام والملابس الثقيلة . وقال لمينا : « ربما لا نرى مدينة أخرى لمدة أسبوع . »

كانَتِ الطُّرُقُ سَيِّئَةً ، وَلٰكِنَّ فان هِيلْسِينغ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الكَلَلَ ، وَمَضَيا قُدُمًا ، وَلَمْ يَكونا يَتَوَقَّفانِ إلّا لِفَتَراتٍ قَصيرَةٍ مِنْ أَجْلِ النَّوْمِ ، أَوْ لِتَغْييرِ الجِيادِ كُلَّما كانَ ذٰلِكَ مُمْكِنًا . حَتّى بَلَغا طَريقَ بِيسْتْرِيتْز في اليَوْمِ الثّاني .

كانَتْ مِينا تَنامُ كَثيرًا ، ولٰكِنَّ الأَحْلامَ الَّتي كانَتْ تَراها عَنِ الماءِ تَوَقَّفَتْ ، مِمّا يُشيرُ إلى أَنَّ دراكولا لابُدَّ أَنْ يَكونَ قَدْ غادَرَ النَّهْرَ . وَالآنَ وَقَدْ أَخَذا يَزْدادانِ صُعودًا في الجِبالِ ، بَدَأَتْ مِينا تَتَخَلَّصُ مِنْ رَغْبَتِها في النُّعاسِ ، وَبَدا عَلَيْها الاهْتِمامُ الشَّديدُ بِالطَّريقِ ، وَأَخيرًا هَتَفَتْ وَهِيَ تُشيرُ إلى طَريقٍ جانِبِيَّةٍ : « هٰذِهِ هِيَ الطَّريقُ . »

فَقالَ فان هِيلْسِينغ : « أَأَنْتِ مُتَأَكِّدَةٌ ؟ »

فَأَجابَتْ : « بِالطَّبْعِ ، أَلَمْ يُسافِرْ جوناثان في هٰذِهِ الطَّريقِ وَيُخْبِرْني عَنْها ؟ »

وَمَعَ أَنَّ الأَمْرَ قَدْ بَدا لِفان هِيلْسِينغ غَريبًا فَإِنَّهُ أَطاعَها ، وَبَعْدَ ساعَتَيْنِ تَبَيَّنَ أَنَّها كانَتْ عَلى صَوابٍ ، فَقَدْ شاهَدا ـ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ـ مِنْ خِلالِ فُرْجَةٍ بَيْنَ الأَشْجارِ جُدْرانًا تُكَلِّلُها السُّحُبُ .. جُدْرانَ قَلْعَةِ دراكولا . فَانْسَحَبا بَعيدًا عَنِ الطَّريقِ بَيْنَ الأَشْجارِ ، وَأَدْرَكَ فان هِيلْسِينغ أَنَّ الثَّلْجَ سَيَسْقُطُ ، فَأَوْقَدَ نارًا ثُمَّ أَخَذَ عودًا وَخَطَّ بِهِ دائِرَةً حَوْلَ النّارِ وَمِينا ، وَأَلْقى فيها بَعْضَ قِطَعٍ صَغيرَةٍ مِنَ الخُبْزِ المُقَدَّسِ . ثُمَّ مَشى إلى خارِجِ الدّائِرَةِ ، وَوَقَفَ يَنْظُرُ إلى مِينا وَهِيَ جالِسَةٌ بِجِوارِ النّارِ صامِتَةً كَالأَمْواتِ ، ثُمَّ نادى : « مِينا ، تَعالَيْ إلى هُنا . »

فَنَهَضَتْ وَبَدَأَتْ تَمْشي نَحْوَهُ ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ ، وَبَدا أَنَّها عاجِزَةٌ عَنِ التَّقَدُّمِ خُطْوَةً أُخْرى . فَمَدَّ فان هِيلْسِينغ يَدَهُ نَحْوَها وَقالَ : « تَعالَيْ . »

فَهَزَّتْ رَأْسَها ثُمَّ انْهارَتْ فَوْقَ الأَرْضِ . لَقَدْ حَدَثَ ما تَوَقَّعَهُ . كانَتْ فِعْلًا قَدْ أَصْبَحَتْ بِنِصْفِ مَصّاصَةِ دِماءٍ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكَ خارِجَ الدّائِرَةِ . وَلٰكِنْ إذا لَمْ تَكُنْ هِيَ قادِرَةً عَلى اجْتِيازِ الدّائِرَةِ لِتَخْرُجَ مِنْها ، فَإِنَّ الآخَرينَ لَنْ يَكونوا قادِرينَ عَلى اقْتِحامِ

الدّائِرَةِ لِيَدْخُلوها . أَمّا هُوَ فَسَيَكونُ آمِنًا ما بَقِيَ في داخِلِ الدّائِرَةِ ، وَمادامَ يَحْرِصُ عَلى أَلّا يُصيبَهُ أَذًى مِنْ مِينا نَفْسِها . وَأَخَذَ يَتَطَلَّعُ إلَيْها ، أَمّا هِيَ فَقَدْ عادَتْ إلى النّارِ وَجَلَسَتْ نَحْوَها مُسْتَغْرِقَةً في أَفْكارٍ عَميقَةٍ خَفِيَّةٍ .

خَيَّمَ الظَّلامُ عَلى المَكانِ ، وَكانَتِ الجِيادُ تَصْهَلُ صَهيلًا مَذْعورًا ، وَتُحاوِلُ التَّخَلُّصَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتي رُبِطَتْ إلَيْها . فَاتَّجَهَ فان هِيلْسِينغ إلَيْها ، وَرَبَّتَ عَلَيْها بِيَدَيْهِ لِتَهْدِئَتِها . وَمَعَ أَنَّهُ كانَ مَنْهوكًا مَكْدودًا فَإِنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ أَنْ يَنامَ قَبْلَ أَنْ تَنامَ مِينا الَّتي كانَتْ أَرِقَةً .

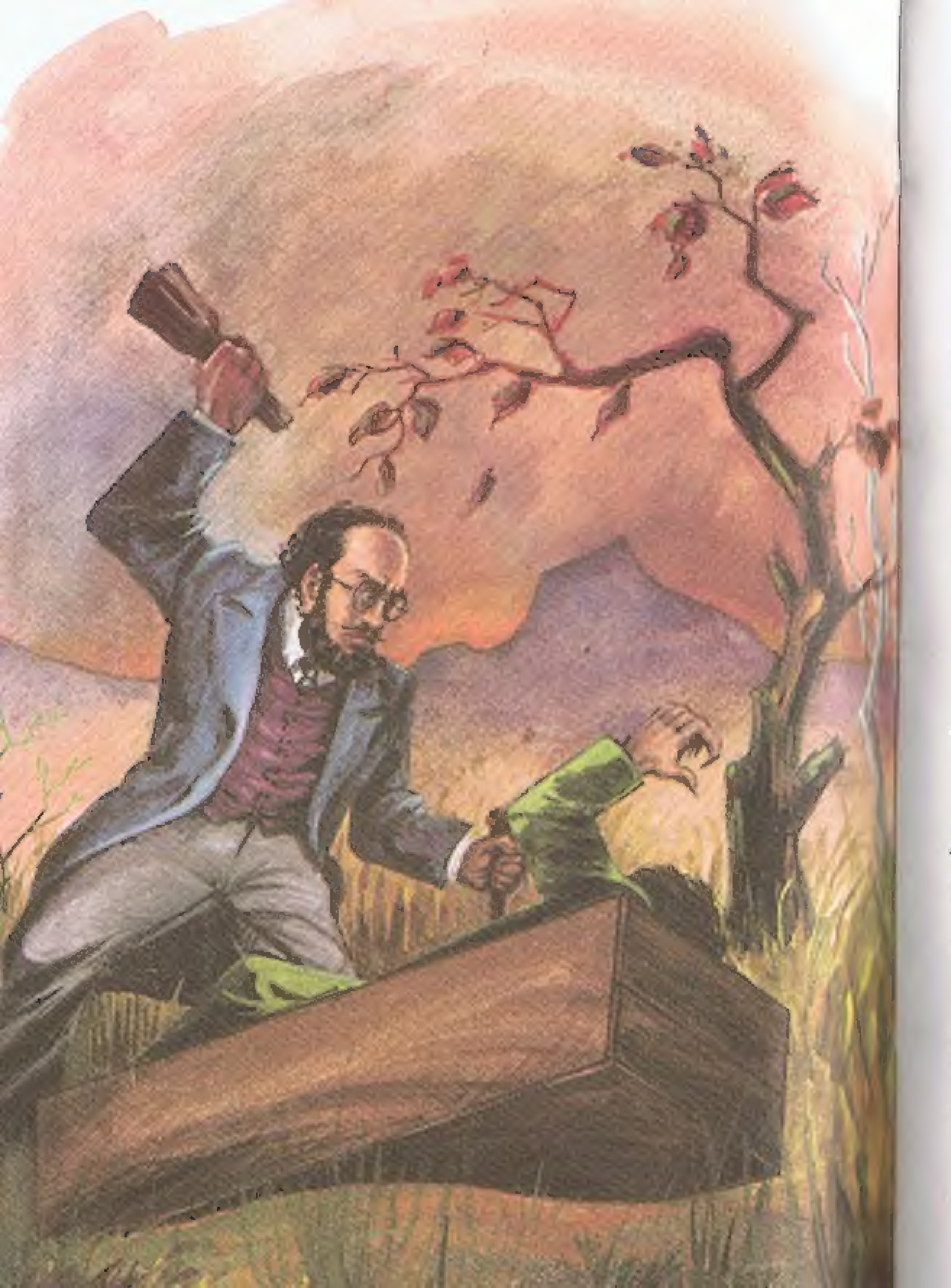
وَفي حَوالَيِ السّاعَةِ الثّالِثَةِ صَباحًا بَدَأَتِ النّارُ تَخْمُدُ ، وَكادَ يوشِكُ أَنْ يَنْهَضَ لِيُحْضِرَ بَعْضَ الخَشَبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكاثَرَ سُقوطُ الصَّقيعِ حينَما تَكَلَّمَتْ مِينا . قالَتْ : « لا تَخْرُجْ مِنَ الدّائِرَةِ الآنَ . ابْقَ كَما أَنْتَ آمِنًا . »

فَتَوَقَّفَ قائِلًا : « رُبَّما أَكونُ آمِنًا . أَمّا أَنْتِ .. »

فَأَطْلَقَتْ ضِحْكَةً خافِتَةً غَيْرَ طَبيعِيَّةٍ وَقالَتْ : « لا تَخَفْ عَلَيَّ . لَيْسَ هُناكَ مَنْ هُوَ أَشَدُّ أَمانًا مِنّي . فَأَنا في أَمانٍ مِنْهُمْ . »

وَكادَ يوشِكُ أَنْ يَسْأَلَها عَمَّنْ كانَتْ تَعْني بِقَوْلِها « مِنْهُمْ » حينَما صَهَلَتِ الجِيادُ ثانِيَةً ، فَنَظَرَ فَإِذا ثَلاثُ نِساءٍ يَتَحَرَّكْنَ حَوْلَ حافَّةِ الدّائِرَةِ كَما تَفْعَلُ الرَّقيصاتُ ، فَتَمَلَّكَهُ الخَوْفُ إذْ أَدْرَكَ أَنَّهُنَّ لابُدَّ أَنْ تَكُنَّ سَيِّداتِ القَلْعَةِ اللّاتي شَرِبْنَ مِنْ دَمِ جوناثان . وَمَدَّتِ النِّساءُ أَذْرُعَهُنَّ نَحْوَ مِينا كَما لَوْ كُنَّ يَدْعونَها لِتُشارِكَهُنَّ . وَأَحَسَّ فان هِيلْسِينغ بِما بَدَأَ يَنْتابُ مِينا مِنْ إثارَةٍ أَخَذَتْ تَتَزايَدُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا . وَفَكَّرَ ، تُرى هَلْ سَتَظَلُّ القُوَّةُ الَّتي في الدّائِرَةِ صامِدَةً ؟

وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرُكَ الأُمورَ لِلْمُصادَفَةِ ، فَالْتَقَطَ قِطْعَةً مِنَ الخَشَبِ المُتَوَهِّجِ وَأَلْقاها عَلَيْهِنَّ وَصاحَ : « بِاسْمِ الرَّبِّ اذْهَبْنَ بَعيدًا . » فَإِذا بِهِنَّ يَبْتَعِدْنَ صارِخاتٍ لاعِناتٍ .



وَعادَ السُّكونُ يُخَيِّمُ عَلى المَكانِ ، وَأَحَسَّ بِإِرْهاقٍ لَمْ يُحِسَّ بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنَّ مِينا كانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَراتٍ غَريبَةً . وَكانَ عَلَيْهِ أَنْ يُواجِهَ الحَقيقَةَ المُفْزِعَةَ ، إِذْ لَمْ يَعُدْ هُناكَ أَمانٌ في أَنْ يَنامَ وَهُوَ بِصُحْبَتِها . إِنَّها تُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ عالَمَ اللَّاموْتَى .

وَأَقْبَلَ النَّهارُ بِبُطْءٍ ، وَتَوَقَّفَ سُقوطُ الصَّقيعِ ، وَلٰكِنَّ السَّماءَ كانَتْ لاتَزالُ مُلَبَّدَةً بِالغُيومِ .

كانَ جوناثان وَآرْثَر قَدِ الْتَقَيا بِجاك سيوارْد عَلى الطَّريقِ في اليَوْمِ السّابِقِ . وَبَيْنَما كانَ الفُرْسانُ الثَّلاثَةُ في طَريقِهِمْ لاحَظوا آثارًا حَديثَةً لِعَجَلاتٍ فَوْقَ الأَرْضِ الَّتي يَكْسوها الصَّقيعُ الخَفيفُ . فَاسْتَدَلّوا بِها عَلى أَنَّهم لا يَبْعُدونَ عَنْ عَدُوِّهِمْ إِلَّا مَسافَةً قَصيرَةً . وَبَعْدَ الظُّهْرِ بِقَليلٍ اسْتَطاعوا أَنْ يَلْمَحوا في طَريقِ الجَبَلِ فَوْقَهُمُ الغَجَرَ الَّذينَ كانَ السلوفاك قَدْ سَلَّموا إِلَيْهِمُ الصُّنْدوقَ . وَحينَما أَخَذَتِ الشَّمْسُ تَميلُ بِبُطْءٍ لِلْمَغيبِ كانَ واضِحًا لِلْجَميعِ أَنَّهُمْ في سِباقٍ مَعَ الزَّمَنِ .

وَفَجْأَةً سَمِعوا طَلْقَةً تُدَوِّي في الفَضاءِ ، وَكانَ مَصْدَرُها مِنْ مَكانٍ قَريبٍ مِنْهُمْ .

فَسَحَبَ جوناثان السِّكّينَ الهِنْدِيَّ الَّذي مَعَهُ ، وَحَثَّ جَوادَهُ المَكْدودَ لِيَنْطَلِقَ ، وَأَوْشَكَتِ المَعْرَكَةُ الفاصِلَةُ أَنْ تَبْدَأَ .

تَوَقَّفَ الغَجَرُ ، وَتَجَمَّعوا حَوْلَ عَرَبَتِهِمْ وَفي أَيْديهِمُ السَّكاكينُ ، وَفي مُواجَهَتِهِمْ في وَسَطِ الطَّريقِ كانَ ڤان هيلْسينْغ يَقِفُ شاهِرًا مُسَدَّسًا . وَبَدا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ مُتَرَدِّدونَ لا يَعْرِفونَ ماذا يَفْعَلونَ . كانَ ڤان هيلْسينْغ واحِدًا ، وَكانوا كَثيرينَ . صَحيحٌ أَنَّهُ يَحْمِلُ مُسَدَّسًا ، وَلٰكِنْ ماذا إِذا هاجَموهُ كُلُّهُمْ دُفْعَةً واحِدَةً ؟

وَلٰكِنَّ الوَقْتَ لَمْ يُسْعِفْهُمْ لِكَيْ يَتَّخِذوا قَرارًا ، فَما هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ حَتّى كانَ الفُرْسانُ الثَّلاثَةُ يَنْدَفِعونَ بِجِيادِهِمْ نَحْوَهُمْ مُباشَرَةً ، وَفي مُقَدِّمَتِهِمْ جوناثان يُلَوِّحُ بِسِكّينِهِ وَيَصيحُ صَيْحاتٍ ضارِيَةً .

كانَ الغَجَرُ مَكْدودينَ مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ ، وَأَخَذَهُمْ هَوْلُ الـمُفاجَأَةِ ، فَتَظاهَروا بُرْهَةً بِمَظْهَرِ الـمُقاتِلينَ ، وَلٰكِنْ سُرْعانَ ما نَكَصوا عَلى أَعْقابِهِمْ وَفَرّوا هارِبينَ إِلى سَفْحِ الجَبَلِ .

كانَتِ الشَّمْسُ وَقْتَئِذٍ قَدْ أَخَذَتْ تَتَدَلّى نَحْوَ أَسْفَلِ الجَبَلِ حَتّى بَلَغَتْ مُنْتَصَفَ الـمَسافَةِ ، وَأَدْرَكوا أَنَّهُ بَعْدَ دَقائِقَ تَعودُ إِلى دراكولا قُوَّتُهُ وَيَفيقُ . فَكانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُسارِعوا قَبْلَ فَواتِ الأَوانِ . وَلٰكِنَّهُمْ كانوا قَدْ فاتَهُمْ أَنْ يُحْضِروا آلَةً يَفْتَحونَ بِها الصُّنْدوقَ ، فَالْتَقَطوا بَعْضَ الأَحْجارِ وَتَسَلَّقوا العَرَبَةَ وَأَخَذوا يَطْرُقونَ أَعْلَى الصُّنْدوقِ بِشِدَّةٍ كَأَنَّهُمْ مَجانينُ . وَكانَتِ الشَّمْسُ قَدْ بَلَغَتْ في تَدَلّيها ثَلاثَةَ أَرْباعِ الـمَسافَةِ نَحْوَ أَسْفَلِ الجَبَلِ . وَكانوا يَكادونَ يُحِسّونَ جَسَدَ دراكولا يَتَحَرَّكُ داخِلَ الصُّنْدوقِ ، وَأَخيرًا وَمَعَ الضَّرَباتِ الـمُتَتالِيَةِ بِالأَحْجارِ ، تَحَطَّمَ خَشَبُ الصُّنْدوقِ ، وَبَدَأَ يَظْهَرُ وَجْهُ دراكولا ، ثُمَّ انْفَتَحَ فَمُهُ ، وَخَرَجَ مِنْهُ صَوْتٌ خَفيضٌ . إِنَّ قُوَّةَ الشَّرِّ قَدِ اسْتَيْقَظَتْ . تُرى هَلْ فاتَ الأَوانُ ؟

كانَتِ الشَّمْسُ قَدِ احْتَجَبَتْ أَسْفَلَ الجَبَلِ حينَما وَضَعَ البروفيسور قِطْعَةَ الخَشَبِ — الَّتي كانَ قَدْ قَطَعَها مِنْ شَجَرَةٍ — فَوْقَ قَلْبِ مَصّاصِ الدِّماءِ . ثُمَّ رَفَعَ كُتْلَةً مِنَ الخَشَبِ وَطَرَقَها بِها بِشِدَّةٍ .

كانَتْ لَحْظَةً رَهيبَةً . وَهَيْهاتَ أَنْ يَنْسَوْا ، مَهْما امْتَدَّ بِهِمُ العُمْرُ — آخِرَ صَيْحَةٍ أَطْلَقَها دراكولا عِنْدَما انْفَتَحَتْ عَيْناهُ وَانْغَرَزَ الطَّرَفُ الـمُدَبَّبُ في قَلْبِهِ . وَكانَتِ الصَّيْحَةُ هِيَ الَّتي جَعَلَتْ مينا تُهَرْوِلُ نَحْوَهُمْ مِنْ مِنْطَقَةِ الأَشْجارِ حَيْثُ كانَتْ مُخْتَفِيَةً ، وَالْتَفَّ الخَمْسَةُ جَميعًا حَوْلَ جُثَّةِ عَدُوِّهِمْ .

وَأَخيرًا هَمَدَتِ الجُثَّةُ ، وَتَوَقَّفَتْ حَرَكاتُ الذِّراعَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ الضّارِيَةُ ، وَنَظَروا فَإِذا وَجْهُهُ الَّذي لايَزالُ مَمْلوءًا بِالحِقْدِ يَتَحَوَّلُ مِنْ أَبْيَضَ إِلى أَصْفَرَ ثُمَّ إِلى رَمادِيٍّ . وَبَدَأَ الجَسَدُ كُلُّهُ يَجِفُّ وَيَضْمُرُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَما هِيَ إِلّا خَمْسُ دَقائِقَ حَتّى بَدا أَشْبَهَ بِالخُضَرِ الذّابِلَةِ ، ثُمَّ ضَمُرَ وَذَوى نِهائِيًّا .

كانوا يُراقِبونَ وَلا يَسْتَطيعونَ أَنْ يُحَوِّلوا أَبْصارَهُمْ عَمّا يَحْدُثُ . وَلَمْ تَكُنْ قَدْ مَضَتْ نَحْوَ عَشْرِ دَقائِقَ مُنْذُ انْغَرَزَ الطَّرَفُ الـمُدَبَّبُ في قَلْبِ دراكولا — حَتّى كانَ الجَسَدُ كُلُّهُ قَدْ تَحَلَّلَ . وَذَهَبَتْ إِلى غَيْرِ رَجْعَةٍ قُوى الشَّرِّ الَّتي كانَتْ تَعيشُ فيه .

وَالْتَفَتَ الرِّجالُ إِلى مينا ، وَمَعَ أَنَّ ضَوْءَ النَّهارِ كانَ قَدْ ذَهَبَ ، فَقَدِ اسْتَطاعوا أَنْ يَلْحَظوا التَّغَيُّرَ الَّذي طَرَأَ عَلَيْها . فَالأَسْنانُ الطَّويلَةُ ، وَاللَّوْنُ غَيْرُ العادِيِّ لِلْبَشَرَةِ ، وَالنَّظْرَةُ الغَريبَةُ في عَيْنَيْها .. كُلُّ ذٰلِكَ قَدِ اخْتَفى .

لَقَدْ عادَتْ ثانِيَةً لِتَكونَ مينا ... مينا الَّتي كانَتْ مِنْ قَبْلُ .. مينا الَّتي أَحَبَّها جوناثان . لَقَدْ نَجَتْ .

الروايات المشهورة

١ ــ جين إير	٤ ــ دراكـــولا
٢ ــ فرانكنشتاين	٥ ــ لورنـــا دون
٣ ــ مونفليت	٦ ــ دكتور جيكل ومستر هايد



مكتبة لبنان

ساحة رياض الصلح - بيروت

رقم مرجع كمبيوتر 104 198 C 01


ARAB COMICS
عرب كوميكس
AC
www.arabcomics.net